



تفكيك البنية الفكرية للإلحاد



جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

Kitab ismi:	Tekfikul bunyetil fikriyye lil ilhad
Kitab ismi:	Atia Adlan
baskı yılı:	2024
Birinci baskı	
Tüm baskı hakları mahfuzdur	



تركيا - إسطنبول 00905378167783 00902125146104 : 00905378167783 00902125146104 www.dar-alusool.com - info@dar-alusool.com daralusool - usool2017	دار الأصول العلمية AL-USOOL AL-ELMIYAH
Balabanağa Mah. Büyük Reşitpaşa Cad. 16B/15, Fatih - İstanbul	

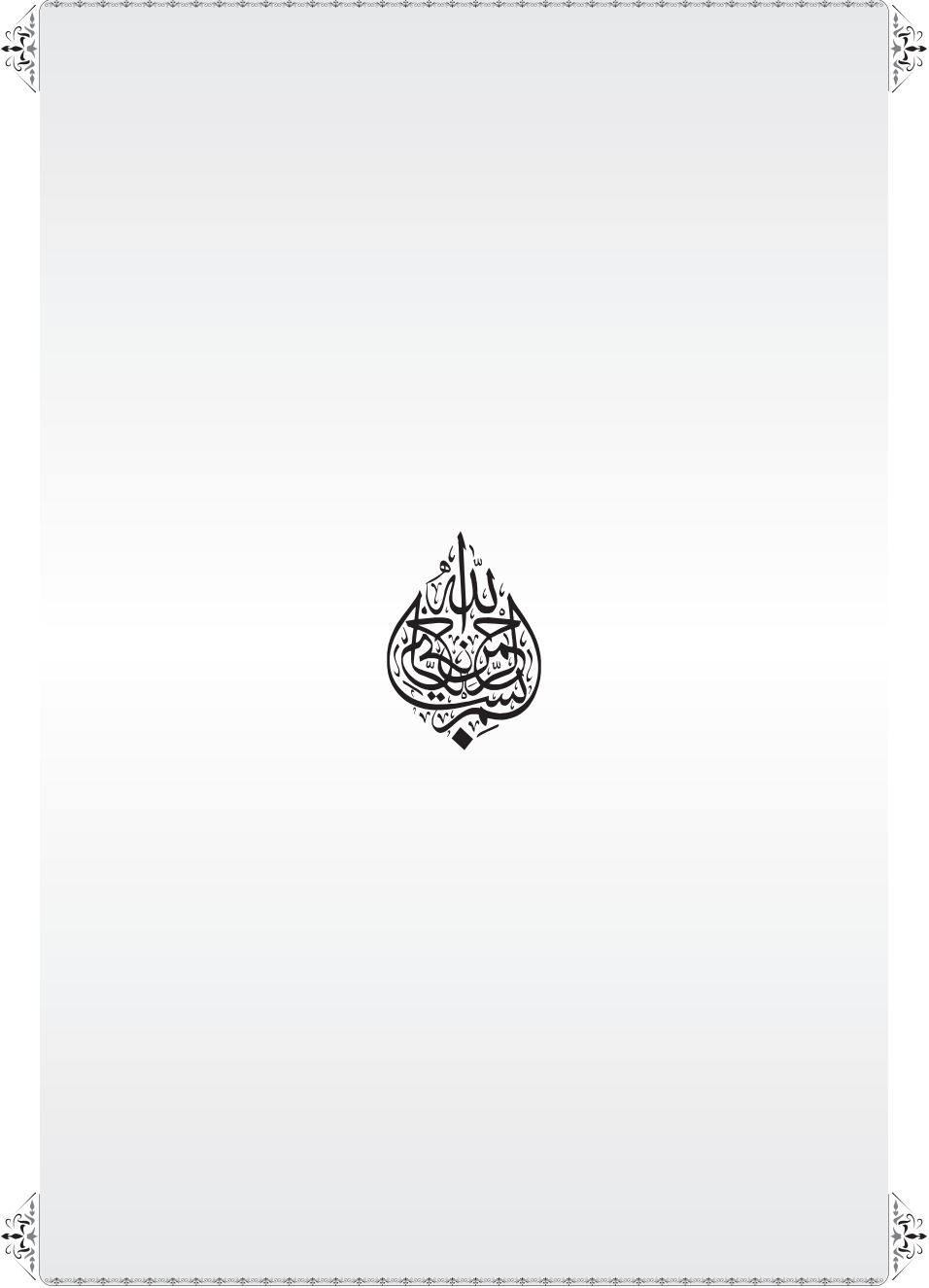


مركز محكمات للبحوث والدراسات
قسم الأبحاث العلمية
إسطنبول

تفكيك البنية الفكرية للإلحاد

تأليف
د. عطية عدلان







مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم.. الحمد لله.. والصلاة والسلام على رسول الله..
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه.. أمّا بعد..

كم هي عاصفةٌ وعارمةٌ هذه الفتن التي تهب على هذا الجيل من أبناء الأمة الإسلامية! ما أشدها وأعنفها وأقساها! وكم نحن بحاجة إلى أن نللم شتاتنا ونستجمع قوانا ونستنهض الهمم لمواجهة هذه الفتن العمياء! يأتي على رأس هذه الفتن دعاوى الإلحاد، تلك التي تهبّ متعاضدة ومتضامنة مع دعاوى الشذوذ والمثلية، وتعصف بالجيل في كل مراحل ولا سيما مرحلة المراهقة والشباب الباكر، والأمة بدون شبابها لا حاضر لها ولا مستقبل، فالشباب هم وقود الثورة والتغيير، وهم عماد البناء والتطوير، وإذا كان أعداء الأمة - الذين هم في الحقيقة أعداء الإنسان والإنسانية - يتربصون بالجيل؛ ليجهزوا عليه - مستثمرين حالة الفوضى الفكرية مع استبداد اليأس والإحباط بقلوب الشباب - فإنّ الواجب على المنتسبين للعلم والدعوة والتربية أن يتصدوا بكل قوة لهذه الموجات العاتية، وأن يكشفوا زيفها وعوارها وبطلانها.

من أجل ذلك وضعت هذا الكتاب، وضعته وأنا أعلم أنّ الكثيرين سبقوني إلى أداء هذا الواجب العظيم، سواء بالتأليف أو بإلقاء المحاضرات والدروس، أو بعقد الندوات، وأنهم أحسنوا وأجادوا بما يجعل الإبداع عزيزاً على من يأتي

بعدهم، لكنني - وقد سبق أن وضعت كتاب الأورغانون الإسلامي - رأيت أنني سأضيف إلى هذه الأعمال العظيمة شيئاً جديداً له صلة بالأورغانون الإسلامي، أي بنظرية المعرفة في الإسلام، وله صلة كذلك بالأزمة الأيستمولوجية التي تعانيها الحضارة المعاصرة، والتي أسلمتها مع الهوى الجامح الذي يدفعها من ظهرها، أسلمتها إلى تناقضية عجيبة لم تقع في تاريخ الإنسانية كلها، تتجلى هذه التناقضية في بلوغ الذروة والقاع في آن واحد! بلوغ الذروة والصعود إلى القمة السامقة في العلم بالكون والحياة وما فيهما من آثار الإعجاز الإلهي، وبلوغ الحضيض والهبوط إلى القاع المسفّ في العلاقة مع خالق الكون والحياة وما فيهما من آيات الإعجاز الإلهي؛ ففي الوقت الذي تنتظر الفطرة من العلم أن يعزّز موقفها وينصر رأيها، إذ به يخذلها ويناقضها ويبدل وسعه في طمس معالمها؛ فالحكم لله العليّ الكبير.

وقد قسّمت الكتاب إلى أربعة فصول، خصصت الفصل الأول منها للكشف عن دوافع الغرب في نزعة المعادية للدين، وعن الهوى الجامح الذي يسيطر على العقلية الغربية، وعن الأزمات الأيستمولوجية التي أوجدها هذا الهوى المستمكن من النفسية الغربية المعاصرة، وسوف يتبين لنا من استعراض هذه الأزمات أنّها حقيقية ومتجذرة، وأنّها محتشدة بالتحديد على الثغر الواقع بين الفيزيقا والميتافيزيقا؛ لتحول بين ما كشفه العلم من أسرار في الكون والحياة وبين ما تفضي إليه هذه الكشوف من ضرورة الإيمان بالله.

أمّا الفصل الثاني فقد جعلته للبرهنة على وجود الله، ولكنني انتهجت في ذلك نهجاً أسلم وأحكم من مناهج الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم ممن يعالجون قضية وجود الله معالجة فلسفية، وذلك بسلوك سبيل في الاستدلال يجمع بين المنهج

التجريبي والمنهج الاستدلالي، ويتخذ من الآيات الكونية منطلقاً ومركزاً، مستفيداً بمنهج القرآن في البرهنة على الربوبية، ومستعيناً بآيات الكتاب العزيز، وهذا سلوك في البرهنة حكيم ومتين؛ لأنه يقوم على تعاضد المناهج، ويدخل بالبرهان إلى الإنسان من كافة المنافذ.

وكما دعمت البرهان بآيات القرآن، دعمته كذلك بمعطيات العلم الحديث، وتوسعت في سرد الحقائق وترتيبها على الدليل، غير أنني في الفصل الثالث توسعت أكثر في النقل عن الفكر الغربي؛ ليس لدعم أدلة الربوبية وحسب وإنما في بيان تهافت الفكر الإلحادي، فجاء الفصل الثالث نقدياً بدرجة كبيرة، أزعج أنني تمكنت من تقويض النظريات التي يعتمد عليها الإلحاد، بالبرهان وبكلام علماء من الغرب وبحقائق تم كشفها في الوسط العلمي الغربي، ويُعدُّ هذا الفصل داعماً للفصلين السابقين بكل تأكيد.

ثم جاء الفصل الرابع والأخير؛ ليقطع على صناع الشبهات طريقهم، ويطردهم من القبو المظلم الذي يأرزون إليه ويتخذون فيه ويطلقون منه دخان الفتن، فقد لوحظ أنهم يعزفون عن الحاضر المشهود الذي يقوم دليلاً على وجود الحقِّ المعبود، ويندفعون نحو مسائل من الغيبات فيمتطون ظهرها باسم المناقشة العلمية، فما موقف المسلم من أمور الغيب، وكيف يتعامل مع الشبهات التي تهبُّ من أفواه هؤلاء اللائذين بها كريح السموم؟ في هذه الفصول الأربعة حاولت أن أستضيء بالقرآن وبمعطيات العلم الحديث.





الفصل الأول

الإلحاد والمأزق الأبيستمولوجي

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وآله وصحبه ومن والاه، أما بعد، فكَمْ نحن بحاجة إلى الوقوف على الدوافع والذرائع قبل الولوج إلى التفاصيل وردّ الأباطيل! ذلك لأنّ الإلحاد ليس فكراً، ولأنّ الملحدين لا يستدلون على موقفهم بدليل يُعوّل عليه، إن هي إلا شبهات يعترضون بها على الحقيقة الإيمانية؛ فإذا انغمسنا مباشرة في الجدل دون بيان للمنطلقات التي ينطلقون منها والغايات التي يسعون إليها أضعفنا الحقيقة وقوينا جانب الخرافة، واستقرّ في وجداننا وهمّ كبير فحّواه أنّ القضية مما تختلف فيه الآراء وتتباين حوله وجهات النظر.

وإلى جانب الدوافع والمنطلقات والذرائع والغايات توجد أزمت أبستمولوجية حقيقية، يوجد مأزق معرفي شديد التعقيد، وقد يعجب المرء لأول وهلة من هذا الطرح ويتساءل في ذهول: أيمن أن تكون الحضارة المعاصرة والعلم الحديث قائمين على منهجية علمية وفكرية مأزومة؟! والجواب - على الرغم من كلّ ما يبدو للناظرين والمتابعين - أجل، بل إنّ الأزمة الأُم تكمن فيما يسمى بنظرية المعرفة، أو الأبيستمولوجيا، تكمن في مصادر المعرفة ومناهجها، يقولون: كيف وقد بلغت الحضارة المعاصرة شأواً بعيداً في العلم والمعرفة والتقدم والمدنية؟! والجواب: وما فائدة ذلك كله إذا عجزت هذه الحضارة بكل ما تملكه من علم

وثقافة ومعرفة عن الإجابة على الأسئلة الكبرى التي يطرحها كل إنسان على نفسه منذ أن يعي الحياة إلى أن يداهم الموت؟! وما قيمة العلم وما بني عليه العلم من مناهج علمية إذا كانت كُبرى ثماره ونتائجه إقصاء الخلق عن الحق وتجهيلهم به؟ وقد نُقل عن فرنسيس بيكون قوله: «المعرفة الحقة هي المعرفة الوحيدة التي تزيد من قوة الإنسان في العالم»^(١)، فأين هي قوة الإنسان وقد انقطع عن الرحمن؟!

إنّ الحضارة المعاصرة وما انطوت عليه من نهضة علمية، وتقدم تكنولوجيا، ووثبة عمرانية؛ لم تنشأ في فراغ، ولم تولد من رحم مجهول الهوية، فأوربا التي شهدت ميلاد هذه الحضارة ليست أرضاً بكرًا لم يسبق لها أن استنبتت ثقافة وفكرًا، فهي الوارث الطبيعي للثقافتين الإغريقية والرومانية، وهي كذلك الوارث الطبيعي للكوارث الفكرية والطوام العقدية لهاتين الثقافتين، ثم إنها هي البيئة التي احتضنت المسيحية المحرفة دين بولس، وظلت على مدى اثني عشر قرنًا أو يزيد تعاني الصراع بين الكنيسة والقصر، وتشهد الجدل الدائر بين أنصار السلطة الدينية وأنصار السلطة الزمنية في تفسير نظرية السيفين البائسة؛ فمن الطبيعي أن تتأثر الحضارة المعاصرة ببيئتها الثقافية التي جمعت بين الخرافة الوثنية والأسطورة الأوغسطينية، وليس من الطبيعي، بل ليس متصورًا أصلاً - ما لم يأتيها نبيّ بوحى من الله - أن تنشأ هكذا مُنبَتَّة عن جذورها.

ضفْ إلى ذلك - وهذا هو الأهم - أنّ الصراع الذي وقع مؤخرًا في بدايات عصر النهضة بين العلم والديانة المسيحية المحرفة كان صراعًا عقيمًا شديد الدموية؛ حيث استبدت الكنيسة بالأمر وادعت ملكية الحقيقة، ومارست ضد العلم

(١) الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيغوفيتش - ت محمد يوسف عدس - دار النشر للجامات مصر - مؤسسة بافاريا - ط: ٢، ١٩٩٧م، ص ١٤٢.

والعلماء كل أنواع العسف والجور والقهر؛ مما كان له أثره في انطلاق النهضة بعيداً عن الدين كلّهِ صحيحهِ وباطلِهِ، وفي استقرار طبيعة النفور من الدين ومن كل ما يخبرنا به الدين أو يكلفنا به، ومن ثم قامت الحضارة المعاصرة من أول يوم على نبذ الدين والتنكر للميتافيزيقا، وإن استمرت روح الخرافة والأسطورة التي ورثتها أوروبا من الماضي ولكن بصبغة علمية كما سنرى.

وجميع الانحرافات الأيستمولوجية التي وقعت والتي سنتحدث عنها بعد قليل مرّدها إلى الهوى الذي استحكم في العقلية والنفسية الغربية، الهوى الذي نشأ من ردّة الفعل الهائلة تجاه ما كانت تمارسه الكنيسة - بالتحالف حيناً والتخالف حيناً مع القصر - من ظلم وطغيان واستبداد علميٍّ وسياسيٍّ ودينيٍّ، انتهى بها إلى قتل العلماء وحرقتهم بالنار وهم أحياء، وإنشاء محاكم التفتيش الرهيبة المرعبة لممارسة التعذيب البشع ضد كل من تسول له نفسه الخروج على مزاعمها، ولم يكن لدى أوروبا من الصبر وطول النفس ما يمهّلها ويكفّف من اندفاعها بعنف صوب الحداثة والعلمانية؛ فكان ما كان، والحكم لله.

هذه الكنيسة التي تفعل ما تفعله باسم السماء، هذه الكنيسة التي تأمر الناس بالرهبة والزهد في الحياة الدنيا أملاً في نعيم الآخرة، وتحرمهم من السعادة الدنيوية ومن خيرات الحياة؛ لتختصّ بها وتتقاسمها مع القصر، هذه الكنيسة التي انغمس رجالها حتى النخاع في الفساد الذي ينهون عنه بأقسى وأعنف الموعظ، فإذا وقع الناس فيه مرات قليلة وهبهم صكوك الغفران وأخذوا في مقابلها أموالهم، هذه الكنيسة لا تستحقّ الإيمان؛ فليكن الكفر بها وبما تدعو إليه هو دين أوروبا الجديد، ولتكن السعادة الدنيوية التي حرّموها على الناس هي الغاية الأكيدة والوحيدة

التي يسعى إليها الناس بكل ما لديهم من علم وعمل، وليكن هذا الإنسان هو سيد الطبيعة، ولا شيء وراء هذه الطبيعة يأمر وينهى ويتدخل في حياة الإنسان.

لقد سيطرت على أوروبا الرغبة العارمة في الخلاص - ليس من الكنيسة وحسب - ولكن من الدين كله؛ بذريعة نبذ الخرافة، وتَحَكَّم فيها هذا الهوى حتى أوقعها في أساطير أشد هزءًا من أساطير الكنيسة الخرقاء، ينقل لنا صاحب كتاب «خرافة التطور» عن «لورين إيزلي» عالم الأثنروبيولوجيا الأمريكي قوله: «بعد أن أمضى العلماء عصورًا طويلة يعيرون على رجال الدين اعتقادهم بالمعجزات والغيبيات، وجد العلماء أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه؛ فاضطروا إلى اختراع خرافتهم الخاصة بهم» يقصد خرافة التطور ونشوء الحياة بالصدفة، وينقل عن الكاتب البريطاني الساخر «كريستوفر بوكر» قوله عن نظرية التطور: «إنَّها نظرية سهلة الفهم وتجذب دارسها بسهولة، غير أنَّ عيبها الكبير هو أنَّها مليئة بثغرات كبيرة وكثيرة، وهذا أمر لم يكن خافيًا على دارون نفسه»^(١)، بما يعني اتهام دارون باتباعه للهوى في إنتاج النظرية.

ونقل وحيد الدين خان عن عالم الفيزياء والفلك البريطاني «جيمس جينز» في كتابه «عالم الأسرار» قوله: «إنَّ في عقولنا الجديدة تعصبًا يرجع التفسير المادي للحقائق»^(٢)، كما نقل عن عالم التشريح البريطاني «آرثر كيث» قوله: «إنَّ نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميًا، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها

(١) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط: أولى، ١٤٣٦هـ، ص ١٣.

(٢) ر: الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - ترجمة: د. ظفر الدين خان - مكتبة الرسالة - بدوت ط ت، ص ٣٥.

إلا لأنَّ الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه»^(١)، أليس هذا التنكر للحقيقة والتجاهل للمعطيات الصادقة انقلاباً إبستمولوجياً على المنهج العلمي؟!

ويقول الفيلسوف الأمريكي «ديفيد بيرلنسكي»: «إن كان للعلم الطبيعي أن يتولى كبر الدعوة إلى الإلحاد؛ فإنَّ البرهنة على ذلك ستتطلب حتماً التماس شيء ما في العلوم ليس من منطوقها ولا مفهومها ولا مما هي معنية بالكشف عنه، إنَّه طريقةُ تفكير مُوصى بها، موقفٌ ميتافيزيقي عام»^(٢)، وينقل عن عالم الرياضيات «ريتشارد توماس»: «بالنسبة لعالم رياضيات: لا يمكن أن تكون هذه الأمور مصادفة، لا بد أن مصدرها سبب أعلى، وذلك السبب هو أصل افتراض أن هذه النظرية الرياضية الكبيرة تصف الطبيعة» ثم عقب: «فالحاصل أن العلم الغربي أولاً وقبل كل شيء إيقانٌ بأمور تُرجى، وبرهانٌ لأشياء لا تُرى»^(٣).

وبعد أن قرّر أن اتجاه العلم الماديّ إلى الإلحاد دينٌ على نحو ما؛ نقل «لي ستروبل» في كتابه «القضية.. الخالق» عن أحد علماء الفيزياء قوله: «هناك نوع من الدين في العلم، وهو دين إنسان يؤمن بنظام وتناسق في الكون، وبأن كل حدث يمكن تفسيره بطريقة منطقية عاقلة... وليس هناك علة أولى، هذا الإيمان يُنتهك

(١) ر: الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - ترجمة: د. ظفر الدين خان - مكتبة الرسالة - بدوت ط ت، ص ٣٦.

(٢) وهم الشيطان «الإلحاد ومزاعمه العلمية» - ديفيد بيرلنسكي - ترجمة: عبد الله الشهري - مركز دلائل - الرياض - ط: أولى، ١٤٣٧هـ، ص ٨٢ - ٨٣.

(٣) وهم الشيطان «الإلحاد ومزاعمه العلمية» - ديفيد بيرلنسكي - ترجمة: عبد الله الشهري - مركز دلائل - الرياض - السعودية - ط: أولى، ١٤٣٧هـ، ص ٧٨.

اليوم باكتشاف أنّ العالم له بداية تحت شروط لا تصلح لتفسيرها قوانين الفيزياء المعروفة»^(١).

فهو دين وإن لم يشتمل على شعائر وشرائع، إنه دين العلم الحديث الداعي إلى الإلحاد والعلمانية، دين الهوى والزيغ والضلال، وقد وضعهم هذا الدين الجديد في مأزق شديد التعقيد؛ حيث صاروا في مواجهة ثورة علمية جديدة تكشف عن حقائق تنطوي على مناقضة تامة لكل مزاعمهم ونظرياتهم الزائفة.

لقد صاروا في حيرة وإبلاس بسبب الكشوف الجديدة التي قوضت المذهب المادّي للعلم الحديث، فقد كتب عالم الطبيعة النظري «جورج ستانشيو» وفيلسوف العلوم «روبرت أوجرو»، كتباً في السابق: «إنّ القصة القديمة للعلم هي المادية العلمية، التي تنادي بأنّ المادة وحدها هي الموجودة، وأنّ كل الأشياء يمكن شرحها من خلال المادة وحدها»، ولكنّهما عادا وقالوا: «إنّه في السنوات الأخيرة «اجتاز العلم سلسلة من الثورات الدرامية؛ غيرت المفهوم الحديث للإنسان ومكانه في العالم»^(٢)، وهذا من آثار الثورة العلمية الجديدة، لكنّ هذه الثورة تقابل اليوم باضطهاد شديد رغم ما تتسلح به من براهين؛ مما يؤكد سيطرة الهوى على الموقف العلميّ، وقد نقل «لي ستروبل» عن «ستيفن ماير» قوله: «كما أنّ وجهة النظر العالمية المادية قد مارست نوعاً من السيطرة على الحياة العقلية، في الثقافة الغربية لمدة ١٥٠ عاماً...

(١) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم إسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢، ٢٠١٣م، ص ١٤٦.

(٢) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم إسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢، ٢٠١٣م، ص ٣٧.

وبعض الناس الذين ينشَقُّون عنها اجتازوا عدوانية شديدة، بل واضطهادًا أحيانًا^(١)، وأحيانا كانت تقابل بدلا من الاضطهاد باللجاج والعناد، ويتمثل العناد في الإنكار المجرد المتخفي في حجج واهية وذرائع ساقطة، ومن أمثلة ذلك أنهم عندما وقعوا في أزمة بسبب أن نظرية الانفجار العظيم أثبتت أن الكون له بداية؛ بما يترتب عليه حتمية العلة الناقلة للكون من العدم، قالوا: إن الكون خرج من العدم إلى الوجود بلا علة! وقد علق الفيلسوف الأمريكي «وليم لين كريج» على ذلك السخف قائلاً: «لم يدافع إنسان عن مثل هذا الوضع السخيف، وهذا ما يجعلني من جديد موجهًا للاعتقاد بأن هذا مجرد مأزق وُضعوا فيه بسبب دليل بداية الكون»^(٢).

ولأنَّ الهوى يؤزِّهم نحو الإلحاد أزا تراهم يهربون دائماً من سؤال: لماذا؟ مع أنَّه سؤال طبيعيٌّ جدًّا وتلقائيٌّ للغاية ومنطقيٌّ إلى أبعد آماذ المنطقية، وموضوعيٌّ بما لا ترى له مثيل في الموضوعية، فالمرء إذا عثر - ليس على ساعة بالغة الدقة ولا هاتف من أرقى الهواتف الذكية - وإنما فقط على «مصيصة فتران»، فإنَّ السؤال عن سبب صنعها على النحو الذي صنعت به مما يستدعيه النظر وتقتضيه العقلانية، وإنَّ القول بالتصميم ضرورة عقلية لا يمكن تجاهلها، كما لا يمكن إدارة الظهر للغائية الطافية في مشهد المصيصة البالغة البساطة؛ فكيف بالكون والحياة والأحياء؟ إنَّ منع السؤال عن الغاية ليس إلا حالة هروب، وراءها طاقة دافعة من الهوى الجامح، انظر ماذا يقول أحد أئمة الكفر ورواد الإلحاد «ستيفن هوكينج»: «إنَّ قوانين الطبيعة

(١) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢، ٢٠١٣م، ص ١٠٩.

(٢) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢، ٢٠١٣م، ص ١٣٢.

تخبرنا بالكيفية التي يتصرف بها الكون، لكنّها لا تجيب على سؤال: لماذا؟... قد يزعم بعضهم أنّ إجابة تلك الأسئلة هي أنّ هناك إلهاً قد اختار خلق هذا الكون بهذه الطريقة... لكن إن كانت الإجابة هي الإله فسينقلب السؤال ليكون: ومن خلق الله؟^(١)؛ فانظر كيف أغلق الملف بهذا الطرح السمج الذي لا يعجز عن ردّه عاميً بسيط لم يقرأ سطرًا في علم الفيزياء الذي برع فيه هو كنج وأضرابه؟!

بيئة ثقافية ملبدة بغيوم الهوى

ليس بالإمكان غرس النبات الصالح النافع قبل تخلية التربة مما ينتشر فيها من الدغل، كذلك ليس بالإمكان وضع مناهج علمية رشيدة في بيئة ثقافية تتجذر فيها الأهواء والعصبيات والأساطير وغير ذلك مما يجعل الوسط العلمي والثقافي كالأدغال المظلمة والأحراش الموحشة؛ لذلك توجه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلى إزالة كل ما يشوش على مناهج الاستدلال والنظر؛ إيغالا منه في تحرير النظرية المعرفية وتخليص الأيستمولوجيا من المشوشات المفتعلة.

والواقع أنّ انتشار وتجذر تلك المشوشات سمة من سمات الجاهليات على وجه العموم، وإذا كانت الجاهلية الأولى قد غرقت في الأساطير والأوهام وركبت متن الهوى والشهوة، فإنّ الجاهلية المعاصرة قد أبدعت وتفنّنت - بما لديها من تقنية - في خلق أساطير وخرافات تلبس ثوب العلم، ونجحت - بما تملكه من آلة إعلامية جبارة - في جعل الأساطير والخرافات الجديدة ديناً وفكرًا يُقدّس تقديسًا لا يقل عن تقديس الجاهلية الأولى لأساطيرها وخرافاتهما، ولقد تحكّم الهوى في

(١) التصميم العظيم «إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى» - ستيفن هوكنج وزميله - ت أيمن عياد - دار التنوير بيروت - ط: أولى، ٢٠١٣م، ص ٢٠٦.

المسيرة العلمية لأخطر النظريات المعاصرة، وبدا بقوة أثر النزعة المادية والرغبة النفسية المنحرفة في كثير مما أنتجه العلم المعاصر.

وقد شاعت تلك الآفات إلى الحدّ الذي جعل بعض من يعادون الدين كله ولا سيما الإسلام ينكرون على آخرين من جلدتهم شَطَطَهم المنهجيّ، ذلك الشطط الذي كان يكمن وراءه الهوى والعصبية والإنكار السابق للحقائق، من ذلك ما نقله «إدوارد سعيد» من الاعتراض والامتناع الذي أبداه «أرنست رينان» المعروف بمعاداته للإسلام تجاه أقوال الفيلولوجي الإنجليزي «تشارلز فورستر» في كتابه «إمالة اللثام عن الدين المحمدي» وكان مما قاله رينان: «إنّ غياب أيّة سلطة ذات رأي مستنير علمي وأدبي في هذا البلد يجعل الزيغ أمرًا لا مفر منه»^(١)، هكذا سماه زيغًا، ورَدّه إلى غياب السلطة العلمية.

ويشير المفكر الكبير «علي عزت بيغوفيتش» تساؤلًا يزلزل العقيدة الحداثيّة من جذورها، ويكشف عن الدوافع النفسية التي دفعت أوروبا لإحلال الإنسان محلّ الله سيدًا على الكون، فيقول: «أليس الإيمان بالإنسان بدلًا من الإيمان بالله هو شكل من أشكال الدين وإنّ بدرجة أنزل؟! إنّ لجوء الماديين إلى الإنسان بدلًا من الرجوع إلى الله يبدو غريبًا حتى عند بعض الماديين، فيكفي ما أكده ماركس نفسه عندما قال: «إنّ الأمل في الإنسانية المجردة للإنسان وَهُمْ لا يقل عن الوهم الدينيّ الخالص»، وهذا كلام يتسق مع مفهوم المعادلة التي تقول: «إذا لم يوجد إله فلا يوجد إنسان أيضًا»^(٢).

(١) ر: العالم والنص والناقد - إدوارد سعيد - ترجمة: عبد الكريم محفوظ - موقع اتحاد الكتّاب العرب - بدون - ص ٣٤٨.

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيغوفيتش - ترجمة: محمد يوسف عدس - دار النشر للجامات مصر - مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام - ط: ثانية، ١٩٩٧ م، ص ١١٢.

وبقدر كبير من العمق يستخرج الدكتور عبد الوهاب المسيري الدوافع الكامنة وراء هروب الجاهلية المعاصرة من البحث عن غاية الوجود الإنساني إلى المادية الصرفة، ويعرض فكرته على هذا النحو: «ذوبان مركزية الإنسان والعقل في مركزية الكون والمادة جعل العلم الحديث يعرض عن الأسئلة الغائية: لماذا خلق الله الكون؟ لماذا خلق الإنسان؟ إلى الأسئلة المادية: كيف خلق الله الكون وكيف سيره؟ ثم إلى الأسئلة الأكثر مادية: ما هي بنية الكون وما هي آلياته؟ وذلك كله جاء في سياق الابتعاد عن أي فكرة تجعل المرجعية خارج حدود المادة؛ ومن هنا تحرر العلم من عبء الأخلاق»^(١).

لقد وقعت الحضارة المادية المعاصرة في مخالفات منهجية خارمة، باتباع الهوى والتعصب للموروث أو للعنصر الغربي ومصالحه، وباستعمال الإعلام المضلل في قلب الحقائق، ولقد ألبست الباطل لبوس الحق، وجحدت ما لا يُجحد إلا إذا جحدت الشمس في رابعة النهار؛ لا شيء إلا لتتصر على الدين، وهذا هو عين ما يحذر منه المنهج العلمي، الذي قرّر أنّ «من معوقات التفكير الأهواء والعواطف، وأخطرها الأصنام الشعورية؛ مثل صنم الروعة والاتباع، وصنم العنكبوت، وهو صنم ذهني يسبب الخلط بين العالم الداخلي للإنسان وبين العالم الخارجي الواقعي»^(٢)، وأنّ منها: «التعصب والإعلام المضلل»^(٣).

(١) ر: فكر حركة الاستنارة وتناقضه - د. عبد الوهاب المسيري - نهضة مصر للنشر - القاهرة - ط: أولى، ١٩٩٨م، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث - د. عبد الفتاح محمد العيسوي وأخوه - دار الراتب - مصر - ط: ١٩٩٧م، ص ٣٨.

(٣) ر: التفكير العلمي - د. فؤاد زكريا - العدد الثالث من سلسلة عالم المعرفة - المجلس الأعلى للفنون بالكويت - مارس ١٩٧٨م، ص ٤٨ - ٩٢.

وهذا هو دأب الجاهليات التي شن القرآن الغارة عليها في كثير من سوره.

لأجل ذلك نزل القرآن الكريم بجملة من الإرشادات والتعاليم التي تضم إلى قواعد المنهجية العلمية سلامة النفس من الهوى والعصية؛ باعتبار أن الإنسان كينونة واحدة ووحدة متماسكة، فإذا انحرفت النفس أو زاغ القلب ظهرت آثار هذا الزيغ والانحراف على طريقة العقل في تناول الأمور والنظر في الظواهر، وفي الاستنتاج وبناء التصورات وهيكله النظريات، ولقد توسع القرآن الكريم في النهي عن الهوى والتحذير منه، وفي بيان حقيقة الجحود الذي قد يوجد مع ظهور الحق والكفر الذي لا يمنعه قيام البرهان.

وهذه طائفة من الآيات؛ التي تعري مناهج الجاهلية، وتكشف عن تعمدتها ممارسة تزوير الحقائق، وتجشمها الإنكار للشمس الساطعة في كبد النهار، وجحد الحق، والاستكبار واتباع الأهواء، وغير ذلك من الأمور الخارمة للمنهج العلمي، فتأمل الآيات لتعرف إلى أي مدى اهتم القرآن بسلامة المنهج من المشوشات النفسية: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوهُ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، ﴿أَفَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا مَكَّمَا﴾ [البقرة: ٧٩]، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، ﴿وَلَكِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَمْ تَلْسُوكَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]، ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

﴿إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَنَوَّنَ صُورَهُمْ لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنَنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ١٤ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ - ١٥]، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتَ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ، وَلَوْ عَلَىٰ أَذْنَبِهِمْ تَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٨ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ١٩ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِحَقِّهِمْ كَرِهُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ٢١ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَجًا فَخَرَجَ رِبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ ٢٢ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٢٣ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ﴾ [المؤمنون: ٦٨ - ٧٤].

﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]، ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٤٧ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَٰ مُوسَىٰ أَوَّلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ٤٨ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤٩ ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٧ - ٥٠]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ٥١ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، ﴿وَمَا تَفْقَهُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

وعندما يتكرر في كتاب الله تعالى الحديث عن مشوشات المنهج العلمي التي تحجب الحقيقة، ويردها جميعا إلى سيطرة النفس على العقل وعلى منهجه في التفكير، بما تحمله هذه النفس من هوى وعصبية وعنصرية وكبر وحقد وحسد، عندما يتكرر ذلك في القرآن بهذا التفصيل والتنويع والتصريف؛ فهذا يعني شيئا جوهريا، وهو العناية بالبيئة الثقافية وتنقيتها من الدغل الذي يؤثر سلبا

على المنهج العلميّ ونتائجه، وإنّ البيئة الثقافية الغربية بيئة نكدة ملبدة بالدغل، وإنّ العقلية العلمية المعاصرة عقلية متمردة بئسة مستفزة بلا أدنى داعٍ ضد الدين الحقّ؛ وما ذاك إلا للهوى الذي استبد بالقلوب والنفوس.

ظنون وتخربات تعوق الوصول للحقيقة

لا يمكن أن يعتمد المنهج العلميّ في التفكير والنظر والبحث على الظنون والتخرصات؛ لذلك - ولكي يقوم منهج علمي صحيح - لابد من القطيعة مع كل تلك الطرائق التي تبني معتقداتها وتصوراتها على الظنون والتخمينات والفرضيات البعيدة، والتي تسارع إلى نفي أمر أو إثباته قبل أن يقوم العلم بذلك الذي تنفيه أو تثبته، وقد شنع القرآن الكريم على أولئك الذين يتبعون - بدلاً من العلم والبرهان والدليل - ظنوناً وتخربات، ولا ينتظرون حتى يتوفر لديهم العلم بما لم يكن لهم به علم.

وإذا كانت المعلومات الجزئية التي جمعها دارون تتمتع بالصحة والواقعية فإنّ تركيب هذه المعلومات للخروج بنظرية اكتنفه كثير من التخربات والظنون والتخمينات التي لا تمت للمنهج العلمي ولا للبرهان بأدنى صلة، ولم تكن التبريرات التي ألقيت هكذا على عواهنها بإرسال وإهمال إلا تخربات وظنوناً، من مثل «صدفة» «ضرورة» «ضربة حظ» «انتقاء عشوائي» «انتخاب طبيعي» إلى غير ذلك من الخرافات التي يصدق عليها قول الله تعالى: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، أي ليس عليها دليل ولا برهان.

لذلك عدّ «مايكل بيهي» تلك التفسيرات الداروينية من قبيل الحيل اللغوية

والتلاعب بالألفاظ، فقال في كتابه «صندوق دارون الأسود»: «الآن - وقد فُتح الصندوق الأسود للرؤية - لم يعد كافياً للتفسير التطوريّ لقوة الإبصار أن تؤخذ البنى التشريحية فقط لكامل العين في الاعتبار - كما فعل دارون في القرن التاسع عشر وكما يستمر مروجو التطور بعملهم حتى اليوم - إنّ كل الخطوات التشريحية والبنوية التي اعتقد دارون أنّها بسيطة تتضمن في الواقع عمليات بيوكيميائية معقدة بشكل مذهل؛ لا يمكن التحايل عليها بحيل لغوية، لقد تبين الآن أنّ قفزات دارون المجازية من تلة لأخرى في العديد من الحالات ما هي إلا قفزات هائلة بين آلات مصممة بعناية، لم يعد الأمر مهمّاً بعد الآن فيما إذا كان هناك فجوات كبيرة في السجل الأحفوريّ أو فيما إذا كان السجل متعاقباً كتعاقب رؤساء الولايات المتحدة»^(١)، والذي ساعد دارون على القفز من تلة لأخرى هو تلك الظنون والتخرصات التي صيغت في عبارات لغوية هلامية يصعب الإمساك بها، أو كما قال آخرون: تجسيدات لمفاهيم متنكّرة، هكذا نقل «جونثان ويلز» عن عالم الأحياء الأمريكيّ «ستيفن جي جولد»: «إنّها تجسيدات لمفاهيم تنكر على أنّها وصف محايد للطبيعة»^(٢).

هذه الظنون والتخرصات ليست من المنهج العلميّ، ولا سيما المنهج التجريبيّ الذي فتنوا به، وهي تمثل ثغرات وصدوعاً في جدار العلم المعاصر، والسبب فيها هو أنّ الحضارة المعاصرة لم تنجح في تنقية البيئة العلمية والثقافية من المشوشات التي تعوق المسيرة البحثية وتحرف مسار البحث العلميّ؛ لذلك

(١) صندوق دارون الأسود - د. مايكل بيهي - ترجمة: مؤمن حسن وآخرين - دار الكتاب للنشر والتوزيع

- الإسماعيلية مصر - ط: أولى، ٢٠١٤م، ص ٤٠.

(٢) أيقونات التطور.. علم أم خرافة؟ - جونثان ويلز - ترجمة: د. موسى إدريس وزملائه - دار الكاتب

- الإسماعيلية - مصر - ط: أولى - ٢٠١٤م، ص ٧.

حرص القرآن الكريم على تنقية الأجواء من الظنون والأهواء، وها هي جملة من الآيات القرآنية التي يتجلى فيها رفض المشوشات التي تتعاون لإنتاج بيئة ثقافية عامّة مرفوضة أبيستمولوجيا: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨]، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا الْكَارُ إِلَّا أُنْيَا مَا مَعْدُودَةٌ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

﴿يَطْئُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَكُمْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، ﴿قَالُوا أَتُخَذُ اللَّهُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨]؛ إلى غير ذلك من الآيات التي تنبذ الهوى والتخرص واتباع الظنون وتعظم من شأن البرهان.

التنكر للغائية جهل وغوغائية

لا سبيل إلى تجاهل الأسئلة الكبرى التي لم يستطع العلم أن يجيب عليها؛ لأنّ «الإنسان لا يستطيع أن يعيش في الوجود دون أن يستفهم عن معناه ومغزاه، ويفكر في مدلوله وما يؤول إليه»^(١)؛ ولذلك نجزم بأنّ العالم في اتجاه التراجع عن الحتميات الأستمولوجية التي تبنّتها الحداثة، وسيكون للثقافة شأن آخر يفسح للإسلام طريقاً للولوج إلى عمق التركيبة الثقافية الغربية، ولاسيما مع الإفلاس الشديد من الفكر الإنساني البديل، والإسلام وحده هو الذي يملك هذه الإمكانية؛ لأنّ القرآن الكريم تولّى الإجابة عن الأسئلة الكبرى، وفي مقدمتها سؤال الغاية: ما هي الغاية من وجودنا؟ وما هي الغاية من خلق هذا الكون؟

فالإنسان خلق لغاية والأحياء كلها خلقت لغاية، والكون كله خلق لغاية، والإيمان بذلك جزء من الإيمان بوجود الله وربوبيته، فمن آمن بالله تعالى ربّاً لكل شيء أيقن حتماً أنّ حكمته تقتضي وتحتّم أن يكون لخلقه وفعله وتديره وتصريفه غاية؛ وإلاّ كان ذلك كلّ عبثاً ولهواً ولعباً، وتعالى الله عن ذلك كلّ علوّاً كبيراً، ومن جحد الله وأنكر ربوبيته لم يجد إلى ذلك سبيلاً إلاّ بإنكار الغائية والقول بعبثية الخلق وعشوائية الحياة وخضوع جميع أحداث الوجود للصدف العمياء، والذين يجحدون الحساب والجزاء والثواب والعقاب والبعث بعد الموت لا يكتفون بذلك حتى ينكروا الدين ويجحدوا النبوات ويرفضوا التكليف والشرع.

هذا الباطل والعبث واللهو واللعب الذي ينتج عن التنكر للغائية يتنزّه الله تبارك

(١) في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة - نقد التمرکز الأوربي - الطيب بو عزة - مركز نماء لبحوث والدراسات - بيروت - لبنان - ص ٢٩ - ٣٠.

وتعالى منه حتمًا، فمن كفر بالله لم يبال بذلك، ومن آمن بالله نزهه عن كل ذلك، فالحق أن الله تعالى خلق السماوات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلاً ولا لعباً، وهذا يعني الغائية التي تجلّت في كثير من آي الذكر الحكيم، وقد كثرت الآيات التي تقرر هذه القاعدة الإيمانية، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۝ [ص: ٢٧ - ٢٨]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ [الحجر: ٨٥ - ٨٦]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ۝١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آتَاخِذَةً مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَالِينَ ۝ [الأنبياء: ١٦ - ١٧]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝ [القيامة: ٣٦].

وقد صرح القرآن الكريم بالغاية من خلق الإنسان، فالإنسان مخلوق لعبادة الله، وعمارة الأرض بمنهج الله، وممتحن بهذه العبادة وبهذه العمارة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ ۝٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ۝٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝ [الذاريات: ٥٧ - ٥٨]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ [البقرة: ٣٠]، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ۝١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ [الإنسان: ١ - ٣]، فالإنسان إذن مخلوق ليُتلى بهاتين الوظيفتين: عبادة الله وعمارة الأرض بمنهج الله، ومن أجل هذا الابتلاء والامتحان جعله الله سميعًا بصيرًا قادرًا مريدًا عاقلًا مختارًا.

إنَّ أحدًا إذا رأى سلاحًا فتَّاكًا أو جهازًا دقيقًا أو قطارًا يسير بسرعه الفائقة على القضبان أو طائرة تحلق في الفضاء، فسأل: هل هناك هدف وغاية من صنعها؟ لا تهمه الناس بالجنون؛ إذ كيف يتفنن صانعها في تصميمها على هذا النحو لا على غيره ثم لا يكون لهذه الصنعة هدف أو غاية؟! فكيف بهذا الكون العملاق الذي يحار الخلق في أبعته ودقة تصميمه وما يعمل فيه من قوانين ونواميس لا تتغير ولا تتحول؟ وكيف بهذه الحياة البالغة الدقة والتعقيد إلى الحد الذي يقف العلماء أمامها مبهورين عاجزين؟

إنَّ إنكار الغائية ليس له من سبب إلا إنكار الخالق ذاته، وقد نقل «أنطوني فلو» عن الفيلسوف والأكاديمي البريطاني: «ديفيد كونواي» قوله: «الظواهر البيولوجية تزودنا بالسبب الذي يجعلنا نشك في أيّ تبرير ممكن لانبثاق صور الحياة من أساس ماديّ، وهو ما يجعلنا نلجأ مرة أخرى إلى الحجة الغائية»^(١)، أي أنّ بطلان الحجج القائمة على أساس ماديّ لتفسير الحياة يؤدي مباشرة إلى الذهاب إلى التفسير بالخلق الإلهي الذي يعني في نهاية الأمر ضرورة الغائية في الخلق، والحقيقة أنّ الاعتراف بالغائية فيما يصنعه الإنسان وإنكارها فيما خلقه الله وأبدعه وصممه يُعدُّ استبدالاً لإله بآخر، وإحلالاً للإنسان محلّ الله في الديانة الحداثية، وقد عدَّ «لوك فيري» من صور التناقض الأدائي «إضافة صفة الألوهية إلى الإنسان»^(٢).

(١) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيته» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت، ط: أولى - ٢٠١٥م، ص ١٥٠.

(٢) «الإنسان - الله» - لوك فيري - ترجمة: د. جميل قاسم - مجلة الاستغراب، ٢٠١٦م، ص ٣٧١.

الإشكالات الطارئة على المنهج التجريبي

ينسب المنهج التجريبي للعصر الحديث حصراً، وتحتكر أوروبا المعاصرة - بالمجازفة والمكابرة - براءة الاختراع وشرف الابتداء، ويُعدُّ «فرنسيس بيكون» هو المبتدئ لمسيرة هذا المنهج في الميدان العلمي المعاصر، حيث أطلق صيحته: «إنَّ أسلمَّ طريق هو الولوج من نافذة الحس والمشاهدة والتجربة إلى إدراك الجزئيات والوثوق بها، ثم الانطلاق منها بتدرج إلى العموميات فالأكثر عمومية»^(١)، وَوَضَعَ «الأورجانون الجديد»^(٢) الذي نقض فيه «الأورجانون الأرسطي» القديم، وأقام فيه معالم المنهج التجريبي، ولكن: هل صحيح أنَّ المنهج التجريبي اختراع أوروبي وأنَّ العقل العربي الإسلامي لم يكن له بهذا المنهج صلة من قبل؟ أم إنَّ الإسلام قد سبق أوروبا وسبق الحضارة المعاصرة كلها إليه؟

المنهج التجريبيّ منهج يقوم على الحس والمشاهدة، وأولى خطواته الملاحظة، ويعرّفون الملاحظة العلمية بأنّها: «انتباه مقصود ومنظم ومضبوط للظواهرات أو الحوادث أو الأمور بُغية اكتشاف أسبابها وقوانينها» وَيُعَدُّونها الخطوة الأولى في البحث العلميّ، وهي من أهم خطواته، يقوم الباحث بها في جميع مراحل البحث؛ تسبق الافتراض وترافقه وتلحق به، وتقود الباحث إلى صياغة الفرضيات والنظريات^(٣)،

(١) الأورجانون الجديد «إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة» - فرانسيس بيكون - ت عادل مصطفى -

رؤية للنشر - القاهرة - ط: ٢٠١٣م، ص ٢٢،

(٢) الأورجانون كلمة يونانية تعني الآلة، والمقصود آلة ووسيلة الوصول للمعرفة، وقد أطلقت قديماً على مجموعة كتب أرسطو في المنطق.

(٣) البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية - رجاء وحيد دويدري - دار الفكر المعاصر -

والمشهور أنَّ الملاحظة تختلف عن التجربة التي تأتي في ترتيب التفكير العلمي بعد الملاحظة، لكنَّ نظرًا لكون التجربة نفسها ملاحظة على نحو ما؛ ذهب البعض إلى عدم وجود حدٍّ فاصل بين الملاحظة والتجريب، فالعالم يلاحظ ثم يجرب ثم يعيد الملاحظة في ضوء نتائج التجربة^(١)، ويمكن تعريف المنهج التجريبي بأنَّه (طريقةٌ بحثٍ علميةٌ تُستخدم للوصول إلى الحقيقة، عبر اختبار الفرضيات باستخدام التجارب، ويكون ذلك باتباع خطوات رئيسية: تحديد المشكلة، صياغة الفرضية، تصميم التجربة، جمع البيانات، تحليل البيانات، استخلاص النتائج، نشر النتائج)، وهو يستخدم غالبًا في العلوم الكونية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجي، ذلكم هو المنهج التجريبي، وهناك مناهج أخرى غيره، كالمنهج الاستدلالي القياسي، والمنهج الوصفي، والمنهج التاريخي، والمنهج الرياضي، والمفاضلة بين هذه المناهج خطأ وقعت فيه الحضارة المعاصرة.

القرآن والمنهج التجريبي

ونحن إن عدنا إلى كتاب الله تعالى نجد أنه يتجه بكل قوة إلى إحياء المنهج التجريبي القائم على المشاهدة الاستقرائية والملاحظة المنضبطة، وعلى السفر والضرب في الأرض، وعلى ضرورة أن يبدأ الاستدلال على القضايا الكبرى من خلال ما تثبته الحواس، ولقد اشتملت الآيات التي أرسى هذا المنهج على تصريحات وتلميحات إلى أسس هذا المنهج، فلننظر كيف كان ذلك في كتاب الله تعالى.

بيروت - ط: أولى - ٢٠٠٠م، ص ١١٥.

(١) راجع: مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث - مرجع سابق، ص ١٠٦.

في البداية يقرر القرآن حقيقة طالما غفل عنها الفكر الإنساني، وهي الشراكة بين العقل والحواس في إنتاج البرهان، فكثيرة هي الآيات التي تذكر الإنسان بأنه قد وهب هذه الآلات الثلاثة التي لا يتحقق الاهتداء إلى الحقائق إلا بها: السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: «أداة تتعلمون بها فتحسون بمشاعركم جزئيات الأشياء فتدركونها ثم تتنبهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بينها بتكرار الإحساس حتى تتحصل لكم العلوم البديهية، وتتمكنوا من تحصيل العلوم الكسبية بالنظر فيها»^(١)، والسمع والأبصار هما عمدة الحواس، نأخذ بهما محسّات ونكوّن منهما معلومات عقلية^(٢)، فهذا الذي دعا إليه القرآن ملاحظة علمية منضبطة تقوم على المشاهدات الاستقرائية.

ويقول عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أي: «يعلمون بها، ويُقال: إن العقل علم غريزي»^(٣)، ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ «ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار»^(٤)، «والمعنى: أن أبصارهم لم تعم، وإنما عميت قلوبهم»^(٥)، «لهم آذان

(١) تفسير البضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣ / ٢٣٥).

(٢) تفسير الشعراوي (٨ / ٤٦٢٢).

(٣) تفسير السمعاني (٣ / ٤٤٥).

(٤) تفسير الزمخشري = الكشف عن حقائق غوامض التنزيل (٣ / ١٦٢).

(٥) زاد المسير في علم التفسير (٣ / ٢٤٢).

تسمع، لكن سماع لا فائدة منه، فكأن الحاسة غير موجودة... إنه سماع كعدمه، بل إن عدمه أفضل منه»^(١)، وعبر عن العقل بالقلب «لأنه محل استقراره»^(٢)، وهذا الإصرار على الجمع بين الحواس والعقل يؤكد تمهيد القرآن للمنهج العلمي التجريبي.

وما أكثر ما يذكر السمع والبصر في كتاب الله؛ للتذكير بنعمة الله: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً ۖ فَمَا آغَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

وهذه آيات ترتب المسؤولية على وجود السمع والبصر: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَنْقَوْنَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقد وردت كلمة الصمم مترافقة مع كلمة العمى في ثمان آيات: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]، ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]،

(١) تفسير الشعراوي (١٦ / ٩٨٦١ - ٩٨٦٣).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١ / ١٢٩).

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّو عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]؛ بما يعني أن سبب ضلالهم وكفرهم أنهم لم يعملوا سمعهم وأبصارهم؛ فلم يفعلوا المنهج التجريبي.

وما أجمل هذا السياق الذي تكرر في كتاب الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، أي: «خلق لكم السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ لتشهدوا بها عجائب مصنوعاته ودلائل قدرته... وَالْأَفْئِدَةَ لتتفكروا بها فيما تشاهدونه منها وتعتبروا»^(١)، والتعليل بالشكر ولوجُّ إلى الغاية بصورة مباشرة، ومثلها قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وهذا لون آخر فيه ترويع من مآل البشرية إذا حرمت هذه الآلات أو أوقفتها وعطلتها: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَّمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]، فذكر هذه الآلات الثلاثة في سياق العلم والاهتداء والشكر على النعم والالاء يؤكد بقوة قيام القرآن الكريم بالتمهيد لوضع المنهج التجريبي.

أمَّا الآيات التي قررت هذا المنهج فكثيرة ووفيرة، لكن أقواها دلالة هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، و«بدأ» بالهمز: أنشأ واخترع، وعلى المنوال ذاته تمضي عشرات الآيات في عشرات السور، من مثل: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٥٩٢).

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطَى الْأَيُّتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿يونس: ١٠١﴾، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾^١ فَإِذَا هِيَ حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿[الأعراف: ١٨٥]﴾، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾^٢ [الروم: ٨]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^٣ [العنكبوت: ١٩]، ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^٤ [النمل: ٨٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^٥ [لقمان: ٣١]، ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأًا نَخْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾^٦ [سبأ: ٩].

تفاصيل اجتهادية

وانطلاقاً من هذه النصوص، ومما اشتملت عليه من بحث وحث وإحكام وإبرام؛ يستطيع الإنسان أن يضع خطوات للمنهج العلمي التجريبي في كل ميدان بما يناسبه، فإن الميادين ليست متشابهة ولا مستوية، فميدان الدراسات الاجتماعية ليس كميدان الدراسات الفيزيائية، ويتوجب على العلماء أن يضعوا خطوات للمنهج العلمي يتبع بعضها أو كلها عند تناول موضوع أو ظاهرة ما بالبحث، وذلك سواء في العلوم الاجتماعية أو العلوم الطبيعية، من مثل ما أورده «أرنولد بريشت» و«كارل فريدريش» و«موريس دوفر جي» و«دافيد شفارتز» و«مادلين جرافيتز» على هذا النحو: الملاحظة، ثم الوصف، ثم القياس لما يكون بطبيعته قابلاً للقياس، ثم القبول أو الرفض «مؤقتاً» لنتائج الملاحظة والوصف والقياس، ثم تعميم استقرائي

«مؤقت» للحقائق الفردية المقبولة في الخطوة السابقة، فتفسير «مؤقت» للحقائق الفردية المقبولة في الخطوة ذاتها، ثم الاستنباط المنطقي من الأحكام العامة الاستقرائية السابقة، ثم الاختبار بواسطة مزيد من عمليات الملاحظة، ثم التصحيح، ثم التنبؤ بالأحداث أو الظروف المتوقعة كنتيجة لما مضى، وأخيراً الرضا للبيانات التي لم يتم التأكد منها عن طريق المنهج السابق^(١)، هذا مجمل ما قاله المفكرون السابق ذكرهم.

والزيادة على هذه الخطوات أو النقصان وإردان مقبولان بحسب التخصص والميدان، وليس المسار قالباً مصبوحاً بالفولاذ، المهم هو إجراء عملية البرهنة على نحو محكم، لتنتقل من المشاهدات والملاحظات الحسية الاستقرائية صوب القانون الكلي أو النتيجة الكلية، عبر خطوات منضبطة تعتمد أساليب ووسائل النظر كالأستقراء والقياس، وتعتمد كذلك المؤكيدات كالاختبار التجريبي أو إعادة وتكرار الملاحظة مع تغيير المواقف أو الظواهر، هذا هو المنهج الذي توحى بجديته وإحاطته كلمات وعبارات في الآيات الكريمات، من مثل: «سيروا» «انظروا» «في الأرض» بهذا الشمول والاستغراق.

الأثر التاريخي

ولقد انطلقت المسيرة العلمية في الأمة الإسلامية وفق هذا المنهج، واستطاع العلماء الكبار الذين بزغوا في حواضر العالم الإسلامي من أمثال الحسن بن الهيثم وجابر بن حيان والرازي والخوارزمي وغيرهم أن يبدعوا في كافة الفنون؛

(١) مناهج البحث في العلوم السياسية - دكتور محمد محمود ربيع - مكتبة الفلاح - الكويت - ط: الثانية - ١٩٨٧م، ص ٩١ - ٩٣.

حتى صارت كتبهم التي انتقلت إلى أوروبا وترجمت إلى لغاتها أصلاً وأساساً للانطلاقة العلمية الكبرى في العصر الحديث، ولئن كانت أوروبا في مجملها قد جحدت وتنكرت لهذا الفضل، حتى زعمت أن العرب لم يكونوا سوى نقلة للعلوم والفلسفات اليونانية، فإنّ الكثيرين منهم قد اعترفوا بالفضل وكشفوا في شهاداتهم عن الحقيقة التي يستنكف الفكر الأوربيّ أن يعترف بها ويسلم لها.

وأكتفي بمثالين فقط من هذه الشهادات الموثقة، الأولى شهادة «منتوجمري وات» الذي يقول في كتابه «فضل الإسلام على الحضارة الغربية»: «ولم يكن العرب مجرد نقلة للفكر اليونانيّ، وإنّما كانوا حملة للشعلة مبدعين، حافظوا على العلوم التي درسوها، ثم وسّعوا آفاقها، وحين شرع الأوربيون حوالي عام ١١٠٠م في الاهتمام الجدّي بعلوم أعدائهم العرب وفلسفتهم كانت هذه العلوم والفلسفة في أوجها، وكان على الأوربيين أن يتعلموا كل ما بوسعهم تعلمه من العرب قبل أن يتمكنوا هم أنفسهم من إحراز المزيد من التقدم في هذه المجالات»^(١)، والثانية شهادة «درابر» في كتابه «المنازعة بين العلم والدين» حول تأثير علوم العرب في الغرب وكيف عبرت إلى أوروبا^(٢)، وهناك شهادات لا تكاد تحصى، ولا يستطيع الحداثيون إنكارها.

الانحراف ومظاهره

وعلى الرغم من عظمة الأثر الذي خلّفه «فرنسيس بيكون» في الحياة العلمية

(١) فضل الإسلام على الحضارة الغربية - منتوجمري وات - ترجمة: حسين أحمد أمين - دار الشروق بيروت - ط: ١٩٨٣م، ص ٦٢.

(٢) ر: الإسلام دين عام خالد - محمد فريد وجدي - دائرة معارف القرن العشرين - ط: أولى - ١٩٣٢م، ص ١٠٦ - ١٠٧.

الأوربية، بنقضه للمنهج الأرسططاليسي، وإقامته للمنهج التجريبي على أنقاض منطق أرسطو، انحرفت أوروبا بهذا المنهج عن مساره، وذهبت به بعيداً عن الخط المرسوم له، وعن طبيعته الفطرية التي توحى بأصلها آيات الكتاب العزيز، وتلخصت أسباب هذا الانحراف في جملة من الأوهام الفكرية والأصنام المنهجية التي يكمن وراءها جميعاً الدافع الكبير والهوى الجامح الذي كان يجتاح أوروبا ولا يزال، فأوروبا التي رزحت دهرًا طويلاً تحت سلطان الكنيسة، برهانياتها الكاذبة التي ابتدعتها لتصرف بها الجماهير عن طلب الدنيا؛ لتبقى حكرًا عليها وعلى القصر، أوروبا هذه انطلقت منذ عصر النهضة في الاتجاه المعاكس تمامًا؛ فاتخذت العلمانية واللا دينية منهجًا ونظامًا، وبعد أن كانت الحياة الدنيا رجسًا يجب التطهر منه صارت هي وحدها مصدر السعادة ودار القرار، وصار الإنسان سيداً للطبيعة حاكمًا عليها؛ فلا حاجة لوصاية تفرضها السماء على الأرض، ولا حاجة للميتافيزيقا وما يأتي منها من شرائع وشعائر، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يتعبد فليتعبد في نفسه، أو في دارٍ من دور العبادة؛ التي ستبقى متنفسًا لمن لم ترتق نفسه لاستلهاام السعادة الدنيوية من حياته على الأرض.

ذلكم هو الهاجس الهائل والدافع الكبير الذي يكمن وراء كل الأصنام التي عبدتها أوروبا باسم المنهج العلمي؛ لئلا توجد أية صلة لهذا الكون بمصدر خارج عنه يمكن أن يكون له على حياة الناس وصاية كتلك التي فرضتها الكنيسة عليهم في العصور الوسطى بقرونها العشر المظلمة؛ فلتنفصل المناهج عن القيم، وليكن الواقع هو القيمة، ولتذهب الغائية إلى الجحيم؛ فما لهذا الكون ولا لهذه الحياة من غاية، ولا شأن للعلم ولا للمنهج العلمي بذلك كله، إنما يُسأل عن: ماذا وكيف، أمّا لماذا فلا شأن للإنسان بها، بل إنه لا وجود لها من حيث الأصل، وليقف دور العقل

عند حدود ما نقله الحسّ؛ فلا خروج له عن دائرة التجربة الحسيّة، ولا بدهيات مسبقة ولا مبادئ عقلية سابقة؛ إن هي إلا مدخلات الحسّ التي ربما تلبس بها الشك المنهجيّ؛ ليقوم العلم بدوره في إثباتها، تلك هي الانحرافات على وجه الإجمال، فلنأت إلى شيء من التفصيل.

لقد صار المنهج التجريبيّ الحديث بعد الانطلاقة الأولى صريحا في إعلانه عن تلك الأصنام التي عبّدت باسم العلم والمنهج العلميّ، فهذا هو «يعلن بكل صراحة ووضوح وجلاء أنّ الحواس الخمس هي المصدر الرئيس والمُموّن الوحيد الذي يمدّ الذهن البشري بالتصورات والمعاني (المعارف والإدراكات)، وأنّ القوة الذهنية هي القوة العاكسة للإحساسات المختلفة في الذهن، وليس للذهن إلا احتواء الإحساسات التي يتلقفها عن طريق تلك الحواس، ومن ثم يحولها إلى تصورات تختزنها أذهاننا، وتتصرف بها من خلال عملية التركيب والتجزئة»^(١)، هذا وحسب! لقد تمكن الهوى من ناصية العلم والمنهج العلميّ، وتوفّر الدافع للانحراف بالمنهج التجريبيّ في وقت مبكر، وكان دافعا ماديا شديدا للنزوع للمادية، لذلك كان لزاما أن ينحو المنهج التجريبيّ هذا المنحى الذي يُعلي من شأن الحواسّ، فهذا «ديفيد هيوم» يَحصر إدراكات الذهن في نوعين اثنين، الأول: الأفكار، الثاني: الانطباعات، والثاني عنده أقوى من الأول، فالأول ينتج عن إدراك الذهن لما يصل إليه من الحواسّ، والثاني استدعاء الذهن لما مضى من هذه الانطباعات، هذان فقط هما المصدران الحصريان للمعرفة^(٢)، بل إنّ كل مواد التفكير مستمدة

(١) نظرية المعرفة الإسلامية - د. جعفر عباس حاجي - مكتبة الألفين - الكويت - ط: أولى - ١٩٨٦م، ص ١٦٦.

(٢) مبحث في الفاهمة البشرية - ديفيد هيوم - ترجمة: موسى وهبة - دار الفارابي - بيروت - ط: أولى -

من الحواس الخارجية، وليس للعقل من دور إلا التحليل والتركيب والنقل^(١)!

هذا المسلك الماديّ الغليظ كان هو المدخل الطبيعيّ لمذهب المنفعة العامّة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فمثلاً «توماس هوبز» اعتبر أنّ مشاعر الإنسان وأخيلته مجرد انعكاسات لحركات في أجزاء جسمه الداخلية، ومرد العواطف والوجدانات إلى الألم واللذة، ومرجع تصرفات الإنسان إلى غريزة حب البقاء، وجميع الدوافع الإنسانية تنبع من حب الذات^(٢)، ومذهب المنفعة العامة عند جيرمي بنتام يقوم على أساس أنّ اللذة والألم هما محور ارتكاز دوافع تصرفات الإنسان، فالإنسان يشعر باللذة والسعادة عندما يفعل الخير؛ فهو لا ينطلق من الإيثار إنّما ينطلق من حب النفس، ولا يتوقع أن يفعل الإنسان خيراً ليس له فيه نصيب^(٣)، وبهذا اتجه المنهج من الاعتماد على الحواسّ كآلات محايدة إلى جعلها أدوات مسكينة في يد الشهوات، الظاهر منها والخفيّ؛ لتنتج للإنسان المعاصر مذهبه في الحياة بمنأى عن الدين!

ومن أجل بقاء سلطان المادة واستقراره واستفحاله كان لابد من تجريد المنهج التجريبيّ الذي انحدر إلى هذا المستوى من الحسيّة المادية التي لا تمثل سوى

٢٠٨٨م، ص ٣٧-٣٩.

(١) مبحث في الفاهمة البشرية - ديفيد هيوم - ترجمة: موسى وهبة - دار الفارابي - بيروت - ط: أولى -

٢٠٨٨م، ص ٤٠-٤١.

(٢) مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق - د. توفيق الطويل - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة -

مصر - ط: أولى - ١٩٥٣م - ص ٦٠.

(٣) ر: مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق - د. توفيق الطويل - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة -

ط: أولى - ١٩٥٣م، ص ٦١ وما بعدها.

انعكاسات للذة والألم والأناية المفرطة؛ كان لابد من تجريد هذا المنهج - ليس من الأصنام التي حذر منها يكون - وإنّما من كل ما يهدد ماديتها ويحول بينها وبين الإيغال في هذه المادية، فكان النفض والإقصاء والاستبعاد متوجّهاً إلى المبادئ والغايات، فلا قَبْل ولا بَعْد، ولا مَبْدَأ ولا غَايَة، لا شيء سوى ما تمليه النزعات على الحسّ ثم ما ينقله الحس إلى العقل الذي يقف دوره عند مجرد ترجمة تلك الجمل المادية والتنسيق بينها لتولد النظريات الكبرى في كافّة الميادين بمسحة مادية غاية في الهبوط، فالإنسان ليس سوى قرد متطور، والحياة ليست سوى غابة يتصارع فيها البشر كما تتصارع الحيوانات الضارية، والبقاء للأقوى وللأصلح بالنظرة المادية! هكذا صارت النزعة الحسّية سبباً ونتيجة لانحراف المنهج التجريبيّ عن خطّه الذي رسمه الأوائل، وعلى رأسهم روجر بيكون ثم فرنسيس بيكون، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ كما سنرى بعد.

والحقيقة أنّ مبادئ العقل الفطرية، كمبدأ السببية ومبدأ عدم التناقض وغيرهما، هذه المبادئ فطرية ضرورية وثابتة بذاتها فلا يمكن إنكارها، ومن ذا الذي يجرؤ على أن ينكرها أو يتنكر لها وهي من القوى الفطرية المركوزة في عقول الخلائق، ومع ذلك فقد أنكر الغرب هذه المبادئ وتنكر لها، فهذا على سبيل المثال «جون لوك» ينكر وجود الأفكار والمبادئ الفطرية في ميدان العلم النظريّ، وميدان الأخلاق على السواء... ويرى أنّ النفس توجد في شكل صحيفة بيضاء ناصعة، كأنّها لوحة من الشمع، خالية من أيّ طابع يميزها عن مثيلاتها، أي أنّ العقل ليس فيه شيء سابق على التجربة، وإنّما التجربة هي التي تخط على هذه الصفحة البيضاء سطورها^(١).

(١) نظرية المعرفة الإسلامية - د. جعفر عباس حاجي - مكتبة الألفين - الكويت - ط: أولى - ١٩٨٦م،

وهذا تخليط فاضح؛ أمّا أنّ النفس تولد صفحة بيضاء ناصعة فصحيح، وأمّا أنّه لا وجود للأفكار والمبادئ الفطرية فليس صحيحاً، ولا تلازم بين ما يصح وما لا يصح هنا، فالنفس التي تولد بيضاء نقية تستطيع بما وهبها الله من عقل أن تدرك الأفكار والمبادئ الفطرية دون حاجة إلى التجربة، ودون داع إلى الشك الديكارتّي العقيم؛ لأنّ مدركات العقل لم تنحصر منافذها في الحواسّ كما يدعي الفكر المعاصر، فإنّنا لا نشك في عدم إمكان الجمع بين المتناقضين ولا نحتاج في إثبات ذلك إلى تجربة، وقل مثل ذلك في سائر المبادئ الفطرية كمبدأ العلّيّة وغيره، بل إنّ كثيراً من العلوم الضرورية الفطرية البسيطة من المدركات التي تستقر في العقل بمجرد تفتحه على الحياة دون حاجة لتجربة.

يقول ابن تيمية: «إن كثيراً من العلوم تكون ضرورية فطرية فإذا طلب المستدل أن يستدل عليها خفيت ووقع فيها شك، إما لما في ذلك من تطويل المقدمات وإما لما في ذلك من خفائها، وإما لما في ذلك من كلا الأمرين، والمستدل قد يعجز عن نظم دليل على ذلك، إما لعجزه عن تصوره وإما لعجزه عن التعبير عنه فإنه ليس كل ما تصوره الإنسان أمكن كل أحد أن يعبر عنه باللسان وقد يعجز المستمع عن فهمه ذلك الدليل وإن أمكن نظم الدليل وفهمه فقد يحصل العجز عن إزالة الشبهات المعارضة إما من هذا وإما من هذا وإما منهما»^(٢)، وما قرّره ابن تيمية هو ذاته ما ذهب إليه «كانط» في «نقد العقل المحض» فهي هو يقر بوجود المسبقات: «يجب عليك - إذن - مُرْعَمًا بالضرورة ذاتها التي يلزمك بها هذا الأفْهَوم أن تُقَرَّ بأنّ مَقَرَّ هذا الأفْهَوم القَبْلِيّ - أي المفْهَوم الأولي الذي يسبق التجربة - هو في قدرتك

ص ١٦٧.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣١٩).

المعرفية»^(١)، وفي موضع آخر يحرر العمل العقلي من الاحتباس في التجربة مقرا بالمسبقات والملحقات: «لفظ الأفهوم العقلي يُظهِرُ لنا مسبقاً أنّه لا يمكن أن ينحصر في حدود التجربة، لأنّه يعود إلى معرفة ليست كل المعرفة الأمبيرية - أي التي تتحصل عبر الحواس كالتجربة واستقراء الظواهر - سوى جزء منها... إنّها معرفة لا يمكن أن تبلغها تماماً أي تجربة متحققة»^(٢)، وقد اعترف بذلك كثير من المعتدلين من العلماء في الغرب.

وإذْناً فلا بد من الاعتراف بوجود تصورات وتصديقات بديهية؛ إذ لو كانت بأسرها كسبية لافتقر اكتسابها إلى تقدم تصورات وتصديقات أخرى، ولزم منه التسلسل أو الدّور، وهما محالان^(٣)، فلا مناص من التسليم بذلك، ونحن لا نجد أنّنا بحاجة إلى تجربة لكي نثبت أنّ الواحد نصف الإثنين وأنّه ثلث الثلاثة، وأنّ الجسم لا يكون في مكانين في آن واحد، ولا بد كذلك من التمييز بين الأفكار المنشئة والأفكار المنشأة، أو التمييز في العقل بين ما اقترح تسميته (العقل المُنشأ) والعقل المُنشئ^(٤).

(١) نقد العقل المحض - إيمانويل كانط - ترجمة: موسى وهبة - مركز الإنماء القومي - بيروت - لبنان - بدون ط ت، ص ٤٧.

(٢) نقد العقل المحض - إيمانويل كانط - ترجمة: موسى وهبة - مركز الإنماء القومي - بيروت - لبنان - بدون ط ت، ص ١٩٣.

(٣) معالم أصول الدين - أبو عبد الله «فخر الدين الرازي» - ت: طه عبد الرؤوف سعد - دار الكتاب العربي - لبنان - بدون ط، ص ٢٢.

(٤) العقل والمعايير - أندريه لالاند - ترجمة: د. نظمي لوقا - الهيئة العامة المصرية للكتاب - ط: ١٩٧٩م، ص ١٢.

إنَّ «الحُدُسَ والبداهةَ يميزان لنا الأمور التي لا تحتاج إلى العقل التجريبيّ، حقائق تبرهن على نفسها بنفسها... هذا الجزء من العقل هو الذي يتعامل مع ما يعرف في نظرية المعرفة بالحقيقة البدئية أو بالحقائق المثبتة ذاتياً... ومن أقوال أينشتاين: العقل البدهيّ هبة مقدسة، والعقل التجريبيّ خادم مطيع»^(١).

وأما إنكار الغائية فتلك قضية ليس وراءها من دافع إلا التنكر للإله، وليس مع منكري الغائية إلا التجديف، ولقد تعرض «آلان تورين» لكشف الملابسات النفسية والدوافع الشهوانية التي تكمن وراء إنكار الغائية، فها هو يقول: «فالحداثة تستبعد أيّ غائية... تُحلّ الحداثة فكرة «العلم» محل فكرة «الله» في قلب المجتمع، وتقتصر المعتقدات الدينية على الحياة الخاصة بكل فرد»^(٢)، ويواصل: «الأيدولوجية الغربية للحداثة والتي يمكن أن نسميها بالحداثة قد ألغت فكرة الذات وفكرة الله المرتبطة بها... يقول أنصار الحداثة: إنّه لا المجتمع ولا التاريخ ولا الحياة الفردية تخضع لكائن أسمى يجب الإذعان له... الفرد لا يخضع إلا لقوانين الطبيعة»^(٣)؛ فهذا هو الدافع: الهروب من الله، والفرار من تكاليف الإيمان به.

وللأسف وجدنا كثيراً من جلدتنا يدخلون وراء هيوم وأمثاله جحر الضبّ، فها هو «فؤاد زكريا» يستدل على بطلان التفسير الغائي بتناقض الغايات للظاهرة الواحدة واختلافها باختلاف الناس؛ مما يدل على أننا نحن الذين خلقنا الغايات^(٤)! واعجباً؛

(١) ليطمئن عقلي - أحمد خيرى العمري - دار عصير الكتب - الطبعة الأولى: ٢٠١٩م، ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) نقد الحداثة - آلان تورين - ترجمة: أنور مغيث - المجلس الأعلى للثقافة - مصر - ١٩٩٧م، ص ٢٩.

(٣) نقد الحداثة - آلان تورين - ترجمة: أنور مغيث - المجلس الأعلى للثقافة - مصر - ١٩٩٧م، ص ٣٢.

(٤) التفكير العلمي - د. فؤاد زكريا - العدد الثالث من سلسلة عالم المعرفة - المجلس الأعلى للفنون والآداب بالكويت - مارس ١٩٧٨م، ص ٥٢.

وهل يعني تناقض الغايات في فهم شخص أن تكون متناقضة في الواقع؟! إن هي إلا عملية فرار من الله إلى الطبيعة العمياء، وأولى بهم أن يفروا من الله إليه، لكنهم لا يريدون الله؛ لأن تسليمهم لله يعني التزامهم بالقيد الأخلاقي، وتحملهم لعهد التكليف الشرعي، إن «ذوبان مركزية الإنسان والعقل في مركزية الكون والمادة جعل العلم الحديث يعرض عن الأسئلة الغائية: لماذا خلق الله الكون؟ لماذا خلق الإنسان؟ إلى الأسئلة المادية: كيف خلق الله الكون وكيف سيره؟ ثم إلى الأسئلة الأكثر مادية: ما هي بنية الكون وما هي آلياته؟ وذلك كله جاء في سياق الابتعاد عن أي فكرة تجعل المرجعية خارج حدود المادة؛ ومن هنا تحرر العلم من عبء الأخلاق»^(١).

إن التجديف إذا بلغ مرتبة إنكار الضروريات بغير دليل إلا مجرد الافتراض الشكّي ينتهي بالبشرية إلى الخبل، ومن المقطوع به أن إنكار العلية ليس وراءه أي دليل يعتمد عليه، وخلاصة هذا المذهب الذي تبناه «ديفيد هيوم» وغيره هو أن ما هو في عالم الواقع لا يتعدى التعاقب بين الحادثتين المشهودتين حسًا، ولا وجود لشيء اسمه الضرورة العلية، فعلاقة العلية ليست ضرورية؛ ومن ثم فهي ليست قبليّة، وإنما هي مجرد تصور بعديّ مكتسب من العادة الذهنية، «وهذا كلام متهافت وساقط ولا دليل عليه، وأثار هذا على العلم المادي نفسه وخيمة؛ لأن هذا الزعم - بحسب برتراند رسل - سيؤدي إلى نتيجة ميتة؛ لأننا لن نستطيع بالاستقراء الوصول إلى نتائج وقوانين كلية إذا لم تكن هناك علة قبليّة»^(٢)، وهذا التنبيه من برتراند رسل

(١) فكر حركة الاستنارة وتناقضه - د. عبد الوهاب المسيري - نهضة مصر للنشر - القاهرة - ط: أولى -

١٩٩٨م، ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) ر: ديفيد هيوم وقانون العلية «لعبة التناقض المريب» - مازن المطوري - مجلة الاستغراب ١٨ -

شتاء ٢٠٢٠م، ص ٢٤٤.

يُعَدُّ إنقاذاً للبحث العلميّ من هذيان ديفيد هيوم وأضرابه، على الرغم من أنّ رسل نفسه ملحد.

وخطورة ما يدعو إليه هيوم وأمثاله تتمثل في أنّ التنكر للعلية سيقطع علينا الطريق إذا أردنا الوصول إلى قوانين كلية في عالم الفيزياء وسائر العلوم الكونية، وهذا يعني أنّ هيوم بأفكاره هذه يعوق مسيرة البحث العلميّ ذاته، وقول هيوم إنّ العلية ليست ضرورية كلام مرسل واهن يخالف الواقع المشهود؛ «فهناك ضرورة وجودية تربط بين واقعتين هي رابطة التوقف (العلية والمعلولية)، فإذا ما وُجِدَتْ الواقعة التي هي العلة؛ فلا بد وأن توجد الواقعة التي هي المعلول؛ بالضرورة والحتم والوجوب، وهذا الإدراك بديهيّ أوليّ غير مستتج من العلوم الطبيعية التجريبية، وإنّما قيام العلوم التجريبية وكفاءة قوانينها مرهونة بهذا القانون»^(١).

ونأتي إلى ذروة الأزمة التي تتمثل في الحصر المفتعل، الذي ليس وراءه من هدف ولا غاية إلا الفرار من أن يسلمهم الاستدلال إلى التسليم بفكرة «الله»، وكما هو معلوم الاستدلال هو «البرهان الذي يبدأ من قضايا يسلم بها العقل ويسير إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة، دون الالتجاء إلى التجربة»^(٢)، فالتجربة إذا أثبتت حقيقة أو سلسلة من الحقائق أمكن بالاستدلال القياسي الانتقال إلى حقائق أخرى تنتج عنها بالضرورة، وكما قال «كارل بوبر»: «إنّ الإدراك الحسي هو معرفة مباشرة

(١) ر: ديفيد هيوم وقانون العليّة «لعبة التناقض المريب» - مازن المطوري - مجلة الاستغراب ١٨ -

شتاء ٢٠٢٠م، ص ٢٤٠.

(٢) مناهج البحث العلمي - د. عبد الرحمن بدوي - وكالة المطبوعات - الكويت - ط: الثالثة، ١٩٧٧م،

ص ٨٢.

نستطيع بواسطتها تبرير معرفتنا غير المباشرة»^(١)، ولولا ذلك لما استطعنا بالتجربة وحدها أن نصل إلى القوانين الكلية كما أشار «برتراند رسل» على الرغم من كونه من أئمة الإلحاد. وبالجمل لا يوجد داع يدعو إلى التكرار والاكتفاء، التكرار لطريقة من طرق التفكير والاكتفاء بطريقة أخرى؛ فجميعها طرائق عقلية فطرية يكمل بعضها بعضاً، «وفي الواقع فإن كلا من الأسلوب الاستقرائي - الذي يتبعه العلماء التجريبيون عادة - يكمل الأسلوب القياسي - أو المنطقي - الذي يميل إليه الفلاسفة؛ فطريتهما واحد متكامل»^(٢)؛ فَلِمَ الفصل إذن؟ ولماذا الإصرار على الاكتفاء بالمنهج التجريبي وما يمليه الحسّ على الإنسان؟ إنَّها فقط المكابرة التي يكمن وراءها الرغبة العارمة في الفرار من الشأن الذي لا يكون الإنسان إنساناً إلا به، وهو الخضوع لله. إنَّ الاكتفاء بما ينقله الحسّ إلى العقل عن طريق التجربة ليس هو المنهج التجريبي، وإنَّما هو صورة مشوهة من المنهج التجريبي، صورة متقزّمة متقبضة لا تليق إلا بحضارة مادية، ملأت الدنيا ضجيجاً ودويّاً في الأرض والبحر والجو؛ بما أنتجته من آلاتٍ صُمِّمَ أغلبها للخراب والتدمير، صورة من المنهج مختزلة مبتسرة، جاءت على غير ما وضعه الأوائل، ومن باب أولى على غير ما وضعه كتاب الله تعالى من قبل، جاءت لتتجاوب مع الصيحة الحداثيّة العلمانيّة اللادينيّة، التي تُصِرُّ على أن تَقَرَّ من الله إلى الطبيعة ومن الآخرة إلى الدنيا ومن الدين إلى الهوى والشهوة؛ فالحكم لله العليّ الكبير.

(١) منطق البحث العلمي - كارل بوبر - ترجمة: د. محمد البغدادي - مركز دراسات الوحدة العربية -

ط: ١٠، لسنة ١٩٩٤، ص ١٢٤.

(٢) البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية - رجاء وحيد دويدري - دار الفكر المعاصر -

بيروت - ط: أولى - ٢٠٠٠م - ص ١٢٩ - ١٣٠.

وجميع ما أنتجه العلم الحديث يخالف هذه المنهجية المشوهة؛ فكأنّها وضعت لا لتستعمل في ميدان العلم، وإنّما لتستعمل فقط في كفّ العلم عن الذهاب للغاية الكبرى، والحيلولة دون اقترابه من تخوم الربوبية الحاضرة المشوهة، «والعلم الحديث لا يدعي ولا يستطيع أن يدعي أن الحقيقة محصورة فيما علمناه بالتجربة المباشرة، فالحقيقة أنّ الماء سائل، ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا، ولكنّ الواقع أنّ كل جزيء من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين، وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ولو أتيناً بأقوى ميكروسكوب في العالم، غير أنّها تثبت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال»^(١)، يقول العالم والفيلسوف البروفيسور «أ. ي. ماندير»: «إنّ حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل؛ فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر؟ هناك وسيلة هي الاستنباط والتعليل، وكلاهما طريق فكريّ... إنّ المنهج التعليلي صحيح؛ لأنّ الكون نفسه عقليّ»^(٢)، فلا مجال للقول بحصر المعرفة فيما تصل إليه الحواس بالتجربة، وإلا اضطررنا لتجاهل كثير من النتائج العلمية.



(١) الإسلام يتحدّى - وحيد الدين خان - ترجمة: د. ظفر الدين خان - مكتبة الرسالة - بدوت ط ت، ص ٤١.

(٢) الإسلام يتحدّى - وحيد الدين خان - ترجمة: د. ظفر الدين خان - مكتبة الرسالة - بدوت ط ت، ص ٤٢.



الفصل الثاني

الاستدلال على وجود الله تعالى

أهكذا اضطررنا إلى الاستدلال على وجود الله وربوبيته؟! وهل خفي الله - تعالى - حتى نلتمس الأدلة على وجوده؟ أم هل تحتاج الشمس إلى دليل وهي ساطعة تتوسط السماء وشعاعها يثقب الفضاء وينير الجهات والأنحاء؟ إنَّ وجود الله وربوبيته حقيقة بديهية لا تفتقر إلى دليل، فإذا كانت مبادئ العقل الفطرية كمبدأ عدم التناقض تحمل في ذاتها إثبات وجودها، وإذا كان الخلق لا يضطرون إلى التماس دليل ليقولوا بملء الأفواه: إنَّ الواحد نصف الاثنين وثلث الثلاثة، وإنَّ الثلاثة أكبر من الواحد ومن الاثنين، وإنَّ الجسم الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، إذا كانوا لا يحتاجون إلى استدلال على هذه الحقائق البديهية وأمثالها؛ فإنَّهم - من باب أولى - ليسوا بحاجة قطَّ إلى البحث عن دليل على وجود الله تعالى.

والذين ينكرون وجود الله ويتنكرون للآيات التي تملأ الآفاق، على فرض أنَّهم يفتقدون الدليل على وجوده أو يشكون في أدلة وجوده، فإنَّهم لا يملكون دليلاً على عدم وجوده، ولا يستطيعون أن يقيموا الدليل على أنَّه ليس موجوداً، وكما يقول الفيلسوف الإنجليزي «والتر ستيس»: «لو أنَّنا سلمنا بأنَّ جميع الأدلة على وجود الله غير سليمة؛ فإنَّ ذلك لا يبرهن على عدم وجود الله، فالقول بأنَّه لا يوجد دليل على وجود جبل على ظهر القمر ارتفاعه ثلاثون ألف قدم؛ ليس برهاناً على

عدم وجود مثل هذا الجبل... فمن المستحيل البرهنة على عدم وجود الله»^(١)، وفي الواقع «لم يدل الفلاسفة الملاحدة بأيّ رأي ذي قيمة في القضايا الفلسفية المتعلقة بمفهوم الربوبية، بل نجد منهم تهرباً عجيباً في هذه القضايا، فهذا كبيرهم «ريتشارد دوكنز» يصف نشأة الحياة والعقل بأنّ ذلك كان «حادثاً عارضاً نتيجة لضربة حظ!» وهذا «لويس ولبرت» يقول: «لقد تعمّدتُ تحاشي القول في نشأة العقل؛ إذ إنّنا لا زلنا لا نفهم عنه شيئاً!» بينما يحل الفيلسوف والبيولوجي الأمريكي الشهير «دانييل دينيت» معضلة نشأة العقل بسداجة شديدة إذ يقول: «ثم حدثت المعجزة!»^(٢)، إنّ كلّ ذلك إلا مظاهر مؤسفة للحيرة والإبلاس والضياع والإفلاس.

إنّ العلم المعاصر لم يُثبت خلاف ما هو ظاهر في الخلائق والأكوان من ربوبية الرحمن، ولا يوجد لدى العلماء الذين اعتادوا سوق الأدلة المحكمة على الحقائق والنظريات العلمية التي يقولون بها أيّ دليل أو برهان يخالف الأدلة الظاهرة الوافرة والطافية الكافية على وجود الله وربوبيته، وما ساقه الملحدون منهم لا يُصنّف ضمن الأدلة، إنّ هي إلا هواجس ووساوس وشكوك، ولا يملك أحدٌ - عالماً فذاً أو أميّاً بسيطاً - يرى ما في هذا الكون وهذه الحياة من عظمة التصميم إلّا أن ينبهر لما يبدو عليه من إعجاز، وكما قال «بول ديفيز»: «حتى العلماء الملحدون الذين يشكلون جزءاً صغيراً جداً وهشّاً من الكون يدبجون قصائد المديح في ضخامته وعظمته وتناغمه وأناقته وعبقريته، ومع تكشف قصة الكون العظيمة لنا بدأ يظهر

(١) الدين والعقل الحديث - والتر ستيس - ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولي - مصر - ط: أولى - ١٩٩٨م، ص ٢٥٤.

(٢) رحلة عقل «وهكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان» - د. عمرو شريف - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة - ط: الرابعة - ٢٠١١م، ص ٣٩.

كما لو أن تطوره نصّ (مخطّطٌ للأشياء) لذا علينا أن نسأل مَنْ كتب هذا النصّ؟^(١).
 إنّ موقف العلماء الملاحظة ليس موقفاً علمياً قط؛ لأنّهم لا يستدلون علمياً على زعمهم، إنّهم ليس سوى حالة نفسية، إنّهم موقف ميتافيزيقي بامتياز، وليس موقفاً علمياً متعلقاً بفيزياء الكون، يكشف الفيلسوف الأمريكي (ديفيد بيرلنسكي) عن هذه الدوافع غير العلمية وغير المنهجية فيقول: «إن كان للعلم الطبيعي أن يتولى كبر الدعوة إلى الإلحاد؛ فإن البرهنة على ذلك ستتطلب حتما التماس شيء ما في العلوم ليس من منطوقها ولا مفهومها ولا مما هي معنية بالكشف عنه... إنّهم طريقة تفكير موصى بها، موقفٌ ميتافيزيقيّ عام، مذهبٌ كليّ!»^(٢)، وينقل لنا (أنطوني فلو) عن (ريتشارد سوينبورن) تهكمه على الملحدين: على هذا النحو: «ولعله أكثر بساطة أن نقول: إنّ هذا التناغم مصدره كيان واحد جعل هذه الأجسام تسلك بهذه الطريقة بدلاً من افتراض أنّ كل الأجسام تتصرف بطريقة معينة بحكم صدق عمياء»^(٣).

إنّ ما قام به هؤلاء لم يجاوز دلالة الأوصاف التي أطلقت عليهم وعلى مذهبهم: (الإلحاد.. اللاأدرية)، فالإلحاد هو الانحراف والميل عن الحق إلى الباطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بَعْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، وأمّا «اللاأدرية» فهي من

(١) الجائزة الكونية الكبرى «لماذا الكون مناسب للحياة» - بول ديفيز - ترجمة: د. سعد الدين خرفان -

وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠١١م، ص ٣١.

(٢) وهم الشيطان «الإلحاد ومزاعمه العلمية» - ديفيد بيرلنسكي - ترجمة: عبد الله الشهري - مركز دلائل

- الرياض - ط: أولى - ١٤٣٧هـ، ص ٨٢ - ٨٣.

(٣) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيه» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت - ط: أولى

- ٢٠١٥م، ص ١٢٩ - ١٣٠.

قول القائل: «لا أدري»، فهذه الأوصاف وقعت تسميتهم، فهم داخلون شاءوا أم أبوا تحت هذه الأوصاف، وهم في الحقيقة لم يجاوزوا تلك الأوصاف التي صارت علمًا عليهم، أي أنهم ليسوا سوى مجموعة من المنحرفين الزائغين الحائدين عن الحق إلى الباطل الذين لا يدرون ماذا يعتقدون.

أما الأصل المستقر المستمر الذي حادوا عنه ومالوا إلى غيره، وচারوا فيه فلم يدروا ماذا يقررون تجاهه، فهو الإيمان بالله وبربوبيته، هذا هو الأصل الذي فطرت عليه البشرية كلها، إلى حدّ أن القرآن الكريم جعله أصلًا وبنى عليه الدعوة إلى التوحيد، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١١) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿[العنكبوت: ٦١ - ٦٣]﴾، وقال عز وجل: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿[المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]﴾، وغيرها من الآيات الماثلة في أقطار القرآن، وعلى الرغم من استقرار هذه الحقيقة في الضمير الإنساني وفي فطرة الخليفة؛ وجدنا القرآن الكريم يسهب ويتوسع في تقريره، فلماذا؟

ظاهرة توسع القرآن في البرهنة على الربوبية

الحقيقة أن الربوبية - بما تشتمل عليه من معاني وحقائق يتقدمها الإيمان بوجود الله - ظاهرة وواضحة ظهورًا ووضوحًا يغني عن التماس الأدلة وسوقها

واستعراضها؛ فلماذا يتوسع القرآن الكريم في بسطها، ويفسح لها مساحات هائلة من الخطاب العليّ؟ يرى البعض أنّ الغاية من ذلك هي الاستدلال على توحيد الألوهية؛ إذ لم تجادل البشرية - من حيث المبدأ - في الربوبية، فجاء القرآن ليني على ما تقرر من الربوبية ضرورة توحيد الألوهية؛ لذلك وجدنا في كثير من الآيات دعوةً إلى هذا البناء المنطقيّ، مثل قوله تعالى بعد استعراض مشاهد الربوبية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

لكنني لا أوافق قطّ على حصر الغاية والحكمة فيما ذهبوا إليه، لأنّ استفادة القرآن بهذا الشكل الموسع المعمق الثريّ، مع ظهور معنى الربوبية في الآيات وتجلّيه في صور عديدة؛ يؤكد أنّ الغاية التي تحدثوا عنها تالّية وليست مقدمة، وتابعة وليست أصلية، ومُتضمّنة وليست مباشرة، أمّا الغاية المباشرة فهي إثبات الربوبية، والمبالغة في إثباتها، وتصحيح وتوسيع وتعميق وإثراء فهم الناس لها، وبيان آثارها الواسعة الممتدة المتغلغلة في الكون والحياة والأحياء، وذلك بغرض تربية العباد وترتيب نفوسهم على نحو يجعلهم قادرين على تحقيق وظيفتي العبادة والخلافة، إضافة إلى أنّ الله تعالى يعلم أنّ البشرية في حضارتها المجنونة هذه سوف تنكر الربوبية، فكان التوسع الذي تتقاصر الهمم عن استقصائه.

ولأنّ وجود الله تعالى قضيةٌ بدئية؛ وجدنا القرآن الكريم لا ينصّ عليها نصّاً ويخصها بالبرهنة كما تفعل الفلسفة، وإنّما يبرهن مباشرة على الربوبية برهنة وافية كافية شافية؛ فإذا ثبتت الربوبية ثبتت من باب أولى حقيقة وجود الله تعالى، وهذه الطريقة القرآنية تتمتع بجملة من المميزات، أولها أنّها تخلصت من التمحور في البرهنة حول قضية بدئية مفروغ منها، فلم تصب بما أصيبت به الفلسفة من عقم وجمود، ثانيها - وهي مترتبة على السابقة - أنّ طريقة القرآن التي جاءت بهذا الاتساع

والشمول طريقة حركية حيّة غضة تحدث التفاعل العقلي والشعوري والحسي والوجداني؛ فتشارك قوى الإدراك في إنتاج البرهان وفي التشبع به.

والربوبية هي المعتقد الأول في سلسلة المعتقدات الإيمانية، وهي القيمة العقدية الأعلى في منظومة القيم الإسلامية، وهي الأصل والجذر الذي تنشق منه شجرة الإيمان وتبنى عليه بناية الإسلام؛ وإدراكنا لهذه الحقيقة يسهل علينا فهم الظاهرة القرآنية اللافتة للنظر، وهي إسهابُ الكتاب العزيز في بيان الآيات الكونية الدالة على الربوبية، وتصريفُ القول بشكل موسع عن مظاهر هذه الربوبية وتجلياتها اللطيفة، فما أكثرها وأعمقها تلك الآيات القرآنية التي تسوق الدلائل الكونية على وجود الله وقدرته وعظمته وقِيُومِيَّتِهِ وعنايته بخلقه ومَعِيَّتِهِ لعباده وفعله وتصريفه وتديره في الكون والوجود والحياة والأحياء!

والربوبية في أصلها مأخوذة من التربية، ففي لغة العرب: رَبَّ الصَّبِيِّ يَرْبُهُ رَبًّا، وَرَبَّهُ تَرْبِيًّا وَتَرْبِيَّةً أَحْسَنَ الْقِيَامِ عَلَيْهِ وَوَلِيَهُ حَتَّى يُفَارِقَ الطُّفُولِيَّةَ سِوَاءَ أَكَانَ ابْنَهُ أَوْ لَمْ يَكُنْ، ويقال: رَبَبْتُ الصَّبِيَّ وَالْمُهْرَ، وَالرَّبِيَّةُ: الْحَاضِنَةُ. وَرَبَّبْتُهُ وَرَبَّبْتَهُ: حَضَنْتُهُ، وَرَبِيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُ امْرَأَتِهِ، وَرَبٌّ وَلَدُهُ وَرَبَّةٌ وَتَرْبِيَّةٌ بِمَعْنَى أَيْ رَبَّاهُ^(١)، ومن هنا يتضح لنا أن الربوبية تعني تربية الله لعباده ولخلقه بالخلق والرزق والإنعام والرعاية والعناية والإنشاء والإصلاح والهداية والتعليم والإرشاد، وتربيته للكون والوجود بالخلق والتسيير والتصريف والتدبير والإنشاء والإحكام، هذا هو المعنى الأصلي للربوبية. وقد جاءت آيات القرآن الكثيرة الوفيرة لتقرير هذا النوع من الربوبية، وللتدليل عليه من الآيات الماثلة في الأنفس والآفاق، وهي آيات تتنوع وتوزع، تتنوع في

(١) العين (٨ / ٢٥٧) - المحكم والمحيط الأعظم (١٠ / ٢٣٤) - مختار الصحاح (ص: ١١٦).

عرضها للآيات المتنوعة، وتتوزع على منافذ النفس المتعددة، وتخاطب العقل والقلب والفطرة والوجدان والضمير والحس والشعور، وتنفذ إلى أعماق الكينونة الإنسانية من كافة منافذها، وتغمرها مثلما يغمر الغيث الأرض التواقفة للحياة، هذه الآيات لا تستدل على وجود الله وحسب، وإنما تستدل على ربوبيته القائمة أصلاً على وجوده، والتي يكون الاستدلال عليها استدلالاً على وجود الله بالضرورة، إنها طريقة القرآن المتفردة بسماتها وخصائصها.

طريقة القرآن في البرهنة على الربوبية

تأمل هذه الكوكبة من الآيات التي نسوقها هنا على سبيل التمثيل فقط:

﴿إِن رَّبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ أَلِيلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ أَلِيلَ لَيْسَ كُنُوفِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ فَاَن تُوَفَّقُونَ ﴿١٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَٰأَيَّتَ اللَّهُ يُحْمَدُونَ ﴿١٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا

وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿غافر: ٦١-٦٤﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً ۖ أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ
بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾
﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ
وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ ۖ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ
هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً
تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازٍ لِيَتَبَنَّوْا مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ ۗ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿فاطر: ١١-١٣﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ
مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا
تَاكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ
لَمْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ
لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٤﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ
 لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ
 فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٥﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ
 بِكُمْ وَانْهَزْنَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ وَعَلَّمَتِ الْبَلَدَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ
 كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ نَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾

[النحل: ٣-١٨].

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ وَإِنْ لَكُمْ
 فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَشَاءُ مِنْكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ
 النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى
 النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ
 ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾
 وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُنَوِّفُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَوَّلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾
 وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ أَنْ يُرْسِلَ رِزْقَهُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
 فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
 أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

[النحل: ٦٥-٧٢].

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
 وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْالِكُمْ مَا يَمْسُكُهُنَّ
 إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ

جُلُودَ الْأَنْعَامِ يُؤْتَا سَتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُمِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ [النحل: ٧٨ - ٨٣] ﴿٨٤﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَak لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٨٥﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٨٦﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٨٧﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

ولدى تأمل هذه الآيات وأمثالها في كتاب الله تعالى نجد أن أكثرها ورد فيه وصف الربوبية بصور مختلفة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾؛ ووروده في السياق يؤكد أن الآيات سبقت في بيان الربوبية، وإن كانت الآيات بذاتها وبما اشتملت عليه تؤكد ذلك، كما نجد أن الآيات استعملت أفعال الخلق والجعل والتسخير والتسيير؛ بما يبرز فعل الله في الكون والحياة، وهذا هو الأثر المباشر للربوبية، ونجد كذلك أن الآيات حققت غايات يقينية، أهمها إثبات وجود الله وقدرته وعظمته فعله في الكون والحياة، وإظهار نعمته على الإنسان، وإبراز العناية الإلهية بالمخلوقات ولاسيما الإنسان، وإجلاء كثير من الملامح الدالة على التصريف والتدبير والفعل الإلهي في هذا الوجود، وهذه كلها مفردات الربوبية في قاعدتها الكبرى التي ستبنى عليها بعد ذلك كل مراتب الربوبية، وهي قاعدة التربية، تربية الله لخلقه ولعباده بالخلق والرزق والإنعام والرعاية والعناية والإصلاح.

هذه الآيات القرآنية تسوق الآيات الكونية الدالة على الربوبية بكل ما تشتمل عليه المعاني التي سقناها آنفاً، هذا الاستدلال مركب من مناهج متعددة ومتضافرة، ففيه الملاحظة والمشاهدة وتكرار النظر وترديده، وفيه الاستقراء التام، وتمام هذا الاستقراء سببه أنه استقراء لظواهر عديدة ومتنوعة من كل الوجوه، لنفي فرض واحد من فرضين لا ثالث لهما: وجود الربوبية أو انتفاؤها، فإذا انتفى أحد الفرضين بقي الآخر شاخصاً في الذهن لا يُميد ولا يَحيد؛ لذلك فإنّ هذا الاستقراء يورث اليقين الجازم، ومع الملاحظة الحسية والاستقراء التام يوجد أيضاً الاستنباط والاستنتاج، كل هذه المناهج تجتمع وتكامل وتتعاون وتتضافر وتعمل في سلاسة وانسيابية، وتساق في لغة راقية رقيقة مغدقة، تسري في أوصال النفس وتتغلغل في أعماق القلب ويرتوي بها الوجدان، ويتحقق بها الانسجام التام بين البيان والعرفان والبرهان.

ولعلنا إن عدنا للآيات التي عرضناها سابقاً سنجد في بعضها تكراراً ملحوظاً وإلحاحاً مستمراً على إبراز المشاهد الكونية على أنها آية لمن أراد أن يعقل ويتفكر ويتدبر ويعي، وهذه طائفة أخرى كثرت فيها التعقيبات التي تكشف عن هذه الطبيعة الدلالية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْلَفَ الْمَسِينِكُمْ وَالْوَنُكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَبْغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بِأَمْرٍ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرٍ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ [الروم: ٢٠ - ٢٥].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَآلِئِنْ تَوَفَّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَآلِئِنْ الْإِصْبَاحَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٩].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]، ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشَّى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاوِرٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَصِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢ - ٤].

﴿وَأَيُّهُمْ هُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا

جَنَّتْ مِنْ تَحِيلٍ وَأَعْنَبَ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ [يس: ٣٣ - ٤٤].

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَكٍ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿ الشورى: ٢٨-٢٩ ﴾، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿ الشورى: ٣٢-٣٤ ﴾.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]، ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ الجاثية: ٣-٥ ﴾.

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً / آيَات ﴾ ﴿ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾

﴿نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ﴾ هذه الآيات الدالة على الربوبية، الشاهدة على وجود الله وعظمته، وعلى قدرته وحكمته ورحمته، وعلى أنه ربّ الكون والخلائق والأحياء بالخلق والتدبير والتصريف، وعلى سائر جوانب الربوبية من عناية ورعاية ورزق وإنعام، هذه الآيات الدالة على أن الله تعالى ربّ كل شيء ولا ربّ سواه، الشاهدة على أن لهذا الوجود ربًّا واحدًا لا شريك له، هذه الآيات ساقها الله تعالى لقوم ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ﴿يُوقِنُونَ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، هذه الآيات يُفَصِّلُها الله تعالى ويُصَرِّفُها في قرآنه ليني اليقين القاطع على الحقيقة الكبرى التي تُعَدُّ قاعدة الدين كله، بل وقاعدة العلم كله؛ لأنه بدونها يكون العلم عاجزًا عن تفسير الحياة إلا بظاهر منها لا يشفي غليلاً ولا يروي غليلاً، بدونها يبقى العلم صامتًا باهتًا أمام الأسئلة الكبرى التي تضطرب داخل كل إنسان، والتي لا يكف الخلق عن إثارتها في وجه العلم والعلماء.

من أجل ذلك كثرت وتنوعت وانهاالت وتتابع الآيات الشاهدة على الربوبية، وإنّها لمن الروعة والجلال والحسن والجمال والتمام والكمال بما يفرض على العقل والقلب والوجدان الإصغاء لما فيها من إملاء والتسليم لما تفيض به من إيحاء، ولا يزال أماننا طائفة من الآيات تزدحم على فم البيان، وتتدافع فوق ثبج المداد، ليس من الذوق أن نَضِنَّ بها على هذا العرض برغم توفر قصد الإيجاز: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٌ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا﴾ ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الروم: ٤٨ - ٥٠].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠ - ١١] ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان: ٢٠] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ نِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٢١﴾ وَإِذْ أغشىهم موجٌ كَأَنَّ الظُّلُمَ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣١ - ٣٢].

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧ - ٩] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ - ٢٨].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنُوا نُوْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣] ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُسْقِيهِ إِلَى الْبَلَدِ مَتَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْشُّورُ﴾ [فاطر: ٩] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يَقْصُ مِنْ

عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ [فاطر: ١١]، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيبًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣]، ﴿الَّذِينَ تَرَى اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ، يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلُ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٧ - ٦٨].

﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلُونَ لَهُ، أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ أَنَّمَا أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ بُرُوحَهُمْ ذَكَرْنَا وَإِنشَاءً وَجَعَلَ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٠) ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَهُ مِثْلًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ﴾ (١١) ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿[الزخرف: ١٢ - ١٤]، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيعٍ﴾ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (٧) ﴿تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (٨) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (٩) ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ (١٠) ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مِثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ﴿[ق: ٥ - ١١]، ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ﴾ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٤٨ - ٥٠].

ومن هذا المعنى الأصلي للربوبية تنبثق معاني الرتب الأعلى في الربوبية، فالربوبية كالهرم ذي الطبقات الثلاث، قاعدته ربوبية التربية بالخلق والرزق والإنعام والتدبير والتصريف والرعاية والعناية والإصلاح، ومن المسلم به أنّ من خلق كل شيء وربّه هو من يملكه - دون غيره - ملكية حقيقية كاملة، ثم من المسلم به أيضاً أنّ من يملك شيئاً هو صاحب الأمر والنهي فيه، ومن هنا تُولد مرتبتان من الربوبية، تترتبان على قاعدة هرم الربوبية ترتيباً طبيعياً، وهما ربوبية الملكية والحيازة والاستحواذ، وربوبية الملك والسلطان والسيادة، حتى العرب تقول ربّ الدابة وربّ الدار، أي صاحبها، وتطلق الرب على الملك: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ لِّلِسُوءِ﴾ ، ومن الآيات التي تحدثت عن المرتبة الثانية من الربوبية: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ (٨٧) ﴿قُلْ مَنْ يَدْعُو بِهِ

مَكَوْنُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]، ومن الآيات التي تحدثت عن المرتبة الثالثة والتي تمثل قمة هرم الربوبية: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولعل الفرار من هذه المرتبة هو الهوى الذي يأخذ بعنق الحضارة المعاصرة بعيداً عن الاعتراف بربوبية الله، لتقوم الحياة على أساس من رفض سلطان الله على عباده، وإنه لهوى كبير وغلظ وجامح.

ينقل لنا «والتر ستيتس» عن مجلة «ريدز ديجمست» عدد يناير ١٩٤٩م مقالاً عنوانه «الله والشعب الأمريكي» وفيه «سجل استفتاء الأمة الكبيرة حول الدين، سأل المحرر الناس عن مدى إيمانهم بوجود الله، فأجاب ٩٥٪ منهم بأنهم يؤمنون بوجوده، ثم سألهم عن مدى اعتبار الدين مؤدياً إلى إقامة حياة فاضلة، فأجاب ٢٥٪ منهم فقط بأنهم يعتبرون الدين أحد العناصر التي يضعونها في أذهانهم... وعندما حلل الدكتور «جرينبرج» هذا الاستفتاء لاحظ أن الشعب لا يجعل الله مرتبطاً على نحو مباشر بسلوكهم»^(١)، ما يعني أن الرغبة في التفتت هي التي تقود لإنكار الرب أو الاعتقاد بوجوده معزولاً عن الكون والحياة، ومعزولاً كذلك عن الإنسان، الذي صار فجأة وفي لحظة خاطفة من عمر الكون سيد الطبيعة!

تفصيل وتدليل

بعد تلاوتك للآيات ووقوفك عند معانيها ودلالاتها؛ إذا لم يكن الدليل على وجود الله - وعلى ربوبيته بالطبع - قد استقرّ في قلبك واستمكن من عقلك ووجد سبيله إلى وجدانك وسكنت له مشاعرك وأحاسيسك، وبإيجاز إذا لم يكن اليقين

(١) المهندس الأعظم وغاية العالم - والتر ستيتس - مجلة الاستغراب، ربيع ٢٠١٦م، ص ٣٣٣.

بعد هذا قد حلّ في كيانك كله؛ فأعد قراءة الآيات، فإن لم تحصّل مقصودك؛ فقم وتوضأ وأعد التلاوة، فسوف يتحقق لك ما تصبو إليه من اليقين الجازم، وإلا فتعال نتدارس معطيات هذه الآيات بطريقة استدلالية معاصرة، وهذا لا يعني أنّ القرآن لا يمضي في برهنته على أمّ القضايا وأصل العقائد والتصورات والعلوم على وفق منهجية أبستمولوجية محكمة، وإنّما يعني أنّ القرآن يضع المنهجية المحكمة والبرهنة الصارمة وسط غلالة من الأساليب البيانية البالغة الروعة والجمال، مع حزمة متسقة من الخطابات الوجدانية والشعورية تشبه ألوان الطيف في شعاع الضوء الساطع؛ فقد يخفى لأجل ذلك - ولأجل الإيجاز المعجز - وجوه الدلالة، ولا سيما مع إلف الطرق المنطقية الرتيبة.

إنّ هذه الآيات التي سقناها هنا - وغيرها مما قصرت همتنا عن سوقها - تستدل على المطلوب عن طريق الدمج المحكم والمنظم بين المنهج التجريبيّ والمنهج الاستدلاليّ، المنهج التجريبيّ الذي يقوم على استقراء الظواهر الجزئية للوصول من خلالها إلى حقائق كلية، اعتماداً على الحسّ والمشاهدة، والمنهج الاستدلاليّ الذي ينتقل بالعقل من مقدمات مقطوع بها إلى نتائج تلزم بالضرورة، ومن تأمل الآيات بمنهجية علمية صحيحة وجد هذا الاتجاه - الدمج بين المنهج التجريبيّ والمنهج الاستدلاليّ - في جميع الآيات ظاهراً ظهوراً شديداً، هذا مع السلامة التامة من أمراض الأبيستمولوجيا القديمة والمعاصرة، كمرض التنكر لمبادئ العقل الفطرية، ومرض التغاضي المقصود عن الغائية، ومرض الشكّ الديكارتيّ العقيم، ومرض الحصر المفتعل الذي لا دليل عليه في نوع واحد من مناهج النظر الفطرية، ومرض القولية الأرسطية الجافة، وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الأدوية المميّية والأرزاء القاتلة، وذلك في الفصل الذي خصصناه للحديث

عن المآزق الأبيستمولوجي المعاصر، وعن الأزمات التي حلت بالمنهجية العلمية في الحضارة المعاصرة.

وإذا كانت الآيات قد بلغت النهاية وأوفت على الغاية في التنسيق بين المنهجين التجريبي والاستدلالي؛ فإنّها كذلك وعلى التوازي أحكمت الاستدلال على الربوبية - بما تشتمل عليه من إثبات وجود الله وقدرته وعظمته وحكمته - عن طريق ضمّ دليلين قويين بعضهما إلى بعض وفتلها بصورة محكمة تجعل منهما دليلًا واحدًا قويًّا متينًا كحبل مجدول مفتول من حبلين كل منهما من مادة لها خاصية تسهم في قوة الحبل ومتانته، الدليل الأول هو دليل الخلق والإبداع، والدليل الثاني هو دليل التصميم المعجز، كلا الدليلين تدلّ عليهما الآيات وتسوقهما كل آية من الآيات سوقًا محكمًا يجعل منهما دليلًا واحدًا شديد الإحكام.

الدليلان المتعاضان

في القرآن الكريم يتعاقد الدليلان، دليل الخلق والإبداع، ودليل التصميم المعجز، وكلا الدليلين من الأدلة الكونية العقلية، أي من الأدلة التي يثبتها العقل من خلال النظر في الكون، فورودهما في القرآن لا ينفي عنهما هذه الصفة، كما لا ينفي عنهما أنّهما يمضيان على المنهجين المتعاضدين: التجريبي والاستدلالي، وتركيب الدليلين المتضامّين على هذين المنهجين المتكاملين يكون كالاتي: كل ما هو مخلوقٌ مُحدثٌ لا بد له من علّة تُرَجِّحُ وجوده على عدمه، وكل ما هو مُصمَّمٌ تصميمًا ذكيًّا لا بد له من مُصمِّم، والكون وما فيه من أفلاك وأجرام وحياة وأحياء مخلوقٌ مُحدثٌ ممكنُ الوجود لا واجب الوجود، ومصمَّمٌ تصميمًا معجزًا حير العلماء قبل الدهماء؛ وإذن فإنّ لهذا الكون خالقًا أبدعه وأحكم صنعته، وصممه

هذا التصميم البالغ الروعة والإعجاز، ولا يمكن أن يقال إنه قد خَلَقَ نفسه أو أَنَّهُ خُلِقَ من غير خالق: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿[الطور: ٣٥-٣٦].

فأما المقدمة الأولى فهي حقيقة بديهية معلومة بالبداهة، ولا ينكرها إلا من ينكر - عن قصد وعلى وجه الجحود المَوْجَّه - مبادئ العقل الفطرية، وقد بينا في الفصل الأول فساد هذا الاتجاه وما وراءه من هوى جامح وتصور ميتافيزيقي آخرق، فهذه قطعيّة من القطعيّات التي لا يتسرب إليها الشكّ، وأما المقدمة الثانية - وهي الأهم في الحقيقة والتي تحتاج إلى إثبات وتدليل - فقد أقام القرآن الدليل عليها عن طريق المنهج التجريبيّ، الذي يقوم على استقراء الظواهر العديدة للخروج بقاعدة كليّة، بها تتمكن من نفي فرض من فرضين لا ثالث لهما، يوضعان في خلفية البحث، الأول: أنّ هذا الكون مخلوق محدث خرج من العدم إلى الوجود وأنّه مصمم تصميمًا ذكيًا معجزًا، الثاني أنّه ليس مخلوقًا ولا مصممًا تصميمًا ذكيًا، والاستقراء يكون بالنظر ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وبالملاحظة والتجربة ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٤٣]، وبترديد النظر وتقليبه ﴿فَأَنْزَجَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (٢) ثُمَّ أَنْزَجَ الْبَصَرَ كَرْنَيْنِ بَقِلَتْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ - ٤]، وبالضرب في الأرض لاستقصاء الظواهر ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وبالمرور على الآيات بما يملكون من الأجهزة والآلات ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وبإعمال آلات الإدراك الفطرية، الحسّية منها والعقلية: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفْعِدَّةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ [النحل: ٧٨]، هذا الاستقراء التجريبيّ التام يفيد القطع للمقدمة الثانية، أمّا النتيجة وهي أنّ لهذا الكون ولهذه الحياة خالقاً أبداعها ومصمماً أحكم تركيبها؛ فهي نتيجة منطقية ضرورية، مترتبة ترتيباً ضرورياً على صحة وتعانق المقدمتين السابقتين، بطريق الاستدلال الحملّي الذي يفيد القطع واليقين.

هذا الدليل المجدول المفتول من دليلين (الخلق.. التصميم) أقوى وأحكم من الأدلة الفلسفية الكلامية، وإن كانت هذه الأدلة لا يستهان بها أيضاً، لأنّها أدلة قوية تنتج اليقين، وما رفضها العلم المعاصر إلا لاعتبارات لا علاقة لها بقوة الدلالة أو ضعفها، من هذه الاعتبارات رفض العلم المعاصر التعامل مع الميتافيزيقا، ورفضه للبدهيّات والضرورات العقلية الأولية، وحصره الاستدلال والبرهنة في المنهج التجريبيّ وحسب، ونبذ للغائية، وتحكم الهوى وعقدة الدنيوية والحدائية، لكننا عدّلنا عنها لما هو أقوى، وكذلك لما هو أنفع لقيامه على الدمج بين المنهجين التجريبيّ والاستدلاليّ، إضافة لمنافع أخرى تربوية.

من هذه الأدلة ما يسمى بالدليل الكوسمولوجي، وهو دليل محكم متين، ولكنه جاف لا حياة فيه ولا تأثير له إلا على العقل فقط، هذا الدليل الكوسمولوجي أو دليل حدوث العامل - كما يسميه ليبنتز - قال به أرسطو وليبنتز وغيرهما، ويجري التعبير عادة عن هذا الدليل في شكل قياسي يتخذ الصورة الآتية: إذا وُجد شيء، فينبغي أن يوجد أيضاً كائن ضروري ضرورة مطلقة، والحال أنّي أنا نفسي - على الأقل - أوجد؛ إذن: فإنّه يوجد كائن ضروري ضرورة مطلقة، وقد يعبر عنه كما هو في فلسفة الفلاسفة الإسلاميين وعلماء الكلام بدليل الواجب والممكن، وهناك دليل أرسطو: المحرك الأول، وغير ذلك، وجميعها طرق استدلالية قوية عقلاً، غير

أنَّ طريقة القرآن أجود وأصلح وأقوى وأمتن، وأشمل عطاءً وأعم نفعاً، وعليها يقوم بنيان الربوبية الهرميّ الشامخ، لا مجرد إثبات حقيقة وجود الخالق، أو كما يعبرون: «إثبات الصانع!».

وهناك من ساق الدليل بطريقة أقل جفافاً، مثل: «ما وُجِدَ بعد عدم فلا بد له من سبب رجح وجوده على عدمه» وكذلك: «ما كان مُمكنًا فهو مفتقر حتمًا إلى وجود واجبٍ أحدثه»^(١)، «فحدوث الإنسان يُستدلُّ به على المحدث، ولا يحتاج أن يُستدلَّ على حدوثه... والفرق بين الاستدلال بحدوثه والاستدلال على حدوثه بيّن، والذي في القرآن هو الأول لا الثاني»^(٢)، أو بطريقة أخرى: «كل ما له بداية فلا بد له من سبب، والكون له بداية؛ إذن فلا بد له من سبب رجح وجوده وابتدائه، وهو الله تبارك وتعالى»^(٣)، ولكن - كما قلنا من قبل - هذه الأدلة على قوتها ومتانتها ليست كطريقة القرآن، لذلك نحن به مكتفون، غير أننا أثناء التفصيل لم نستصحب جميع الآيات؛ لأنَّ ذلك سيكون تطويلاً وإطناباً بلا داعٍ؛ فالمهم هو وضوح المنهج، فإذا اتضح المنهج استصحبه المسلم في تطوافه بآيات القرآن الكريم التي تستعرض الآيات الكونية وتستدل منها على الربوبية، وهذا المسلك سيكون له بالغ الأثر على قارئ القرآن.

(١) شموع النهار - عبد الله بن صالح العجيري - مركز تكوين - مكتبة مؤمن قريش - الخبر - السعودية - ط: أولى - ٢٠١٦م، ص ٩٥.

(٢) شموع النهار - عبد الله بن صالح العجيري - مركز تكوين - مكتبة مؤمن قريش - الخبر - السعودية - ط: أولى - ٢٠١٦م، ص ٩٧.

(٣) شموع النهار - عبد الله بن صالح العجيري - مركز تكوين - مكتبة مؤمن قريش - الخبر - السعودية - ط: أولى - ٢٠١٦م، ص ١٠٩.

العلم ودليل الخلق والتصميم

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ حَلَقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعَىٰهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٧ - ٢٩]، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُوءُ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمَتُهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات: ٤٨ - ٥٠]، ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُمَا سَمَاءً وَأَرْضًا مُبْدُوءًا لَكُم مِّنْهَا وَمَا تَدْرِيونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ أولم يروا بتجاربهم وأجهزة الرصد الحديثة لديهم وملاحظاتهم العلمية المتكررة أنَّ الكون كان شيئًا واحدًا فَفُتِقَ فَتَقًا عَنِيفًا ليكون هذا الكون الكبير وهذا الوجود العظيم؟ ألم يؤكد لهم العلم الحديث بمناظيره ومعادلاته وقوانينه أنَّ الكون مُحَكَّم البناء، وأنَّ أجرامه وأفلاكه مشدودة بعضها إلى بعض بتوازن القوى الأربعة التي تحكمه وتضبطه، وأنه يتسع ويتمدد بسرعة منضبطة، أم إنَّهم حسبوا أنَّهم بعلمهم أقوى وأشدَّ خلقًا وأحكم بناءً من هذه السماوات وهذا الكون الذي أَحْكَمَ بناؤه وَرَفَعَ سَمَكُهُ وَأَظْلَمَ لَيْلُهُ وَأُضِيَءَ نَهَارُهُ بما فيه من قوانين تنظم دوران الكواكب حول شمسها؟! مالهم كلما ازدادوا علما بالكون قلَّ فهمهم له؟

لقد اطلعوا على ما لم يطلع عليه غيرهم من عظمة هذا الكون، هم الذين أخبرونا بالمعلومات والحقائق التي تعدُّ تفسيرًا وتوضيحًا لهذه الآيات القرآنية وغيرها، فهم الذين أخبرونا بأنَّ «شمسنا واحدة من مئات البلايين من النجوم التي تشكل مجرة درب التبانة، ومجرة درب التبانة واحدة من مئات البلايين من المجرات الموزعة في الفضاء حتى حدود كشف أجهزتنا... تعادل السنة الضوئية ١٠ تريليون كيلومتر... القمر يبعد بمسافة تقدر بثانية ضوئية واحدة... قطر مجرة

درب التبانة ١٠٠٠٠٠ سنة ضوئية... مجرة أندروميديا من أقرب جيراننا تقع على بعد (٥, ٢) مليونين ونصف سنة ضوئية... أبعد مجرة رصدها منظار هوبل تقع على بعد ١٠ بلايين سنة ضوئية... يمكننا اليوم بواسطة الملاحظات الدقيقة بأجهزة مثل WMPA وتلسكوب هوبل الفضائي تحديد موعد دقيق للانفجار الكبير، إنَّ التقدير الحالي الأفضل هو ١٣,٧ بليون سنة... عمر الأرض هو ٤,٥٦ بلايين سنة^(١)، فهل هناك تصديق علمي وتوثيق تجريبي للأوصاف القرآنية: ﴿بَنَاهَا.. سَوَّاهَا.. رَفَعَ سَمَكَهَا.. أَشَدَّ خَلْقًا﴾ أكبر من هذا الذي نطقت به علومهم؟ فما لهم لا يؤمنون؟!

وهم الذين أخبرونا بهذا الخبر المعجز: «بعد حوالي جزء من مائة جزء من الثانية من عمر الكون أو من بدء الانفجار العظيم، هبطت حرارة الكون إلى ما يقرب من مائة مليار درجة مئوية، وهي درجة أسخن بكثير من مركز أكثر النجوم حرارة، إلى حدٍّ أنَّ مكونات المادة العادية الجزيئات الذرات حتى النوى الذرية لا يمكن أن تحتفظ بتماسكها، وبدلاً من هذا العناصر المركبة كانت المادة المضطربة في أثناء هذا الانفجار مكوَّنة من مختلف أشكال الجسيمات الأولية، الإلكترونات ذات الشحنة الكهربائية السالبة والبوزيترونات ذات الشحنة الكهربائية الموجبة، والنوترينوات التي لا شحنة لها ولا كتلة، إضافة إلى الفوتونات، فكانت هذه الجسيمات كلها تولد من الطاقة الصرفة ثم تتلاشى ثم تولد ثم تتلاشى وهكذا بسرعة هائلة، لكنَّ عددها كان دائماً ثابتاً بسبب التوازن بين عمليات الخلق والتلاشي، كل هذا يجري والكون مفعم بالضياء، وكان يوجد نسبة قليلة من جسيمات أكثر كثافة، البروتونات وهي مشحونة إيجابياً والترونات وهي حيادية لا شحنة لها، ونسبة وجود هذه الجسيمات

(١) الجائزة الكونية الكبرى «لماذا الكون مناسب للحياة» - بول ديفيز - ترجمة: د. سعد الدين خرفان - وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠١١م، ص ٣٤-٣٦.

الثقيلة إلى الأخرى واحد إلى مليار، وهي النسبة التي يسمونها النموذج القياسي. ثم بعد حوالي جزء من عشرة من الثانية هبطت درجة حرارة الكون ٣٠ مليار درجة مئوية، وفي تمام الثانية كان قد هبط إلى ١٠ مليارات درجة مئوية، ثم استمرت بالهبوط حتى بلغت في تمام الدقائق الثلاث الأولى مليار درجة مئوية، وفي هذه الدرجة تتمكن البروتونات والنترونات من التجمع لتكوين نوى الذرات، ابتداء بالهيدروجين الذي تتكون نواته من نيترون واحد وبروتون واحد، ثم الهيليوم الذي تتكون نواته من اثنين من كل منهما، فكانت الأنوية الموجودة في ذاك الأوان عندما كان عمر الكون ثلاث دقائق ٧٣٪ منها هيدروجين، و٣٧٪ منها هليوم، وباقي الحساء الكوني كان مكوناً من الضوء والنوترينوات المضادة، بينما الإلكترونات والبوزيترونات كانت قد تلاشت عندما صارت درجة حرارة الكون ١٤ ملياراً، وبقي منها القليل، وبعد آلاف السنين كانت حرارة الكون قد هبطت بما يسمح بجذب الأنوية للإلكترونات مكونة بذلك ذرات كاملة من الهيدروجين والهليوم، ومن هنا بدأ الغاز المتشكل في التكاثف لتنهيار المادة على ذاتها تحت ضغط قوى الجاذبية مكونة المجرات بما فيها من نجوم، غير أن المكونات الرئيسية لولادة النجوم كانت مهياة سلفاً في نهاية الدقائق الثلاث الأولى»^(١).

هم الذين أثبتوا بأنفسهم قانون الطاقة المتاحة، الذي يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الكون له بداية، وأنه في لحظة ما خرج من العدم إلى الوجود؛ بما يترتب عليه قطعاً تأييد العلم المعاصر لدليل الخلق والإبداع الذي أتى به القرآن مدغوماً في دليل التصميم ومدعوماً به، وقانون الطاقة المتاحة المعروف بالقانون

(١) ر: الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون - ستيفن ونبيرغ - ترجمة: محمد وائل الأتاسي - زارة الثقافة - دمشق - ط: أولى - ص ١٣ ... وما بعدها.

الثاني للديناميكا الحرارية، ينصُّ على أن الطاقة تنتقل دائماً من حالة ذات حرارة أعلى إلى حالة ذات حرارة أدنى، ولا يمكن أن يحدث العكس، وبشكل أكثر وضوحاً، ينص القانون على أن العمليات الطبيعية تميل إلى زيادة الفوضى أو العشوائية في النظام بمرور الوقت، وهو ما يعرف بالإنتروبيا، هذا القانون له تأثيرات كبيرة على فهمنا للكون، حيث يشير إلى أن الكون يتجه نحو حالة من التوازن الحراري النهائي، حيث لن تكون هناك طاقة متاحة لأداء العمل، مما يعني نهاية العمليات الكيميائية والحيوية.

وقد تحدث «وحيد الدين خان» عن هذا الكشف العلمي الخطير الذي قلب الموازين، والذي يقول إنَّ الكون يفقد الطاقة باستمرار وأنَّ الحرارة تنتقل دوماً من وجود حراري إلى وجود حراري أقل والعكس ليس ممكناً، بما يعني أن الكون سائر إلى فقد الطاقة ومعها فقد كفاءة الكون للعمل والحياة، وهذا يعني أن الكون ليس أزلياً؛ لأنه لو كان أزلياً لفقد طاقته منذ زمن بعيد، وكذلك لا يمكن أن يكون أبدياً^(١).

ويقول الدكتور مصطفى محمود: «الكون إذن ليس أزلياً، وإنَّما هو كون مخلوقٌ كان له بدء، بدليل من قاموس العلم، وهو ما نعرفه باسم «القانون الثاني للديناميكا الحرارية، ويقرر هذا القانون أنَّ الحرارة تنتقل من الساخن إلى البارد، من الحرارة الأعلى إلى الحرارة الأدنى، حتى يتعادل المستويان فيتوقف التبادل الحراري، ولو كان الكون أبدياً أزلياً بدون ابتداء لكان التبادل الحراري قد توقف في تلك الآباد الطويلة المتاحة، وبالتالي توقفت كل صور الحياة»^(٢).

(١) ر: الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - ترجمة: د. ظفر الدين خان - مكتبة الرسالة - بدوت ط ت، ص ٥٤.

(٢) رحلتي من الشك إلى الإيمان - د. مصطفى محمود - دار المعارف - مصر - بدون - ص ١٦ - ١٧.

أمّا الدليل الأقوى والأكثر دويّاً في الأوساط العلمية الغربية فهو نظرية الانفجار العظيم، والتي تنصّ على أنّ الكون كله انبثق عن نقطة واحدة ﴿كَانَ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؛ وذلك بحدث هائل وقع منذ ١٤ مليار سنة تقريباً، يسمى بالانفجار العظيم، والعجيب أنّ العلم الحديث يقرر أنّ هذا الانفجار هو الذي أوجد هذه الأربعة: المادة والطاقة والزمن والفضاء، وأنّ هذه النقطة الواحدة التي يسمونها (المنفردة) صفرٌ في حجمها لانهاية في كتلتها وطاقتها، عندها تنهار كل قوانين الفيزياء؛ فلا يعرف أحد شيئاً عمّا قبلها.

وعلى الرغم من أنّ الذين فصّلوا في هذه النظرية كثيرٌ؛ فإنّني أفصّلُ أن أنقل هنا كلام زعيم كبير من زعماء الإلحاد (ستيفن هوكنج) فانظر ماذا يقول: «أول دليل علمي حقيقي على أنّ للكون بداية كان في ثلاثينيات القرن العشرين... بُني على ملاحظات (أدوين هابل) التي قام بها بتلسكوب طوله ١٠٠ بوصة... وتحليل طيف الضوء الذي تبعته المجرات حدّد (هابل) أنّ كل المجرات القريبة منّا تبتعد عنّا، وأنّ سرعة ابتعادها تكون أكبر كلما كانت أبعد منّا، وفي عام ١٩٢٩م صاغ قانوناً يربط بين معدل ابتعادها ومسافة بعدها عنّا، واستخلص أنّ الكون يتمدد، وإذا كان هذا صحيحاً فإنّه لا بد أنّ الكون كان أصغر بكثير... فكل المادة والطاقة في الكون لا بدّ وأن تكون مركزة في منطقة صغيرة جدّاً من الكثافة ودرجة حرارة لا يمكن تخيلها، وإذا عدنا للخلف بما يكفي سيكون هناك في الوقت الذي بدأ فيه كلّ ذلك الحدث الذي نسميه الانفجار العظيم»^(١)، ويكمل بيانه قائلاً: «ولم تأت الملاحظات المباشرة الأولى التي تدعم تلك الفكرة حتى عام ١٩٦٥م؛ مع

(١) التصميم العظيم «إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى» - ستيفن هوكنج وليونارد مولدينو -

ترجمة: أيمن أحمد عياد - دار التنوير - بيروت - ط: أولى - ٢٠١٣م، ص ١٥٢ - ١٥٣.

اكتشاف أن هناك خلفية خافتة من الموجات الكهرومغناطيسية قصيرة المدى في كل أنحاء الكون... فإشعاع موجات الخلفية الكونية قصيرة المدى هو الإشعاع الذي تبقى من الكون الابتدائي الكثيف جدًا والساخن جدًا، والذي ربما يكون قد وجد بعد الانفجار الكبير بفترة قصيرة جدًا، ومع تمدد الكون راح يبرد إلى حد أن أصبح الإشعاع مجرد تلك البقية الخافتة التي نلاحظها اليوم»^(١).

ثم يستطرد: «فَلِكَيْ نكون موجودين فإنَّ الكون يجب أن يحتوي على عناصر مثل الكربون الذي ينتج بطهو العناصر الأخف داخل النجوم، ويجب أن يوزع الكربون بعد ذلك خلال الفضاء في انفجار السوبر نوبا، وفي النهاية يتكاثف كجزء من الكوكب في الجيل الجديد من النظام الشمسي... تلك العملية تستغرق حوالي عشرة مليارات سنة»^(٢)، ثم يبين الآثار قائلًا: «أثناء هذا التمدد الكوني كما لو أن عملة قطرها سنتيمتر واحد قد تخمت بعرض مجرة درب التبانة عشرة مليون مرة، سيبدو هذا انتهاكًا للنسبية التي توجب عدم تحرك أي شيء بأسرع من الضوء، لكن هذا الحد من السرعة لا ينطبق على تمدد المكان نفسه»^(٣)، وفي كتاب آخر له يقول: «إنَّ اكتشاف هابل أن الكون يتمدد وظهور ضالة كوكبنا في الكون الفسيح كانا فقط نقطة البداية، ومع تراكم الدليل التجريبي والنظري أصبح من الواضح أكثر وأكثر

(١) التصميم العظيم «إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى» - ستيفن هوكنج وليونارد مولدينو -

ترجمة: أيمن أحمد عياد، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٢) التصميم العظيم «إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى» - ستيفن هوكنج وليونارد مولدينو -

ترجمة: أيمن أحمد عياد، مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٣) التصميم العظيم «إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى» - ستيفن هوكنج وليونارد مولدينو -

ترجمة: أيمن أحمد عياد، مرجع سابق، ص ١٥٩.

أنّ الكون له بداية في الزمان، حتى تمت البرهنة على ذلك نهائياً عام ١٩٧٠م... وهكذا فإنّ ما تظهره في الحقيقة نظريات (المنفردة)، وأنّه لا بد أن الكون كان في وقت مبكر جداً صغيراً للغاية؛ فإنّ المرء لا يستطيع أن يتجاهل تأثيرات المقاييس الصغيرة لنظرية ميكانيكا الكم^(١)، فسبحان الذي أجرى الحق على ألسنتهم.

هذه النظرية صارت ثابتة بما لا يدع مجالاً للشك، وقد كانت في بداية ظهورها مفاجئة للملحدّين، وحاولوا أن يشوشوا عليها بنظريات موازية غاية في التهافت والافتراض التعسفيّ البعيد الذي لا تدعمه التجربة العلمية، كنظرية الأوتار الفائقة ونظرية الكون المتردد ونظرية الأكوان المتعددة، وغير ذلك، جميعها لاذت بالفرار من الساحة العلمية أمام نظرية الانفجار العظيم، التي اضطر الملحدون للتسليم لها في نهاية الأمر، مثلما فعل «ستيفن هوكينج»، وقد اطلعنا على ما سطره بيده باعتباره متخصص، وقد نقل عنه «لي ستروبل»: «كل إنسان تقريباً يؤمن الآن بأنّ الكون والزمن نفسه كانت لهما بداية في الانفجار العظيم»^(٢).

وليس لذلك من تفسير إلا أنّ خالقاً قادراً حكيمًا عليمًا مريدًا خلق هذا الكون وأبدعه، هذا هو الحقّ الذي لا محيد عنه، ولا ارتياب فيه، وإذا كان الملحدون يتنكرون لذلك ويهربون من هذه النتيجة الحتمية بأساليب وضيعة فإنّ الكثيرين اليوم من علماء وفلاسفة غربيين راحوا يمسخون عار المادية، بكلمات من مثل قول «ستيفن ماير»: «إذا كان صحيحاً أنّ للكون بداية - كما هو متفق عليه الآن لدى جميع

(١) تاريخ موجز للزمان من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء - ستيفن هوكينج - ترجمة: د. مصطفى

إبراهيم فهمي - سلسلة جدران المعرفة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط: ٢٠٠٦م، ص ٥٥ - ٥٦.

(٢) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م،

العلماء المحدثين - فإنّ هذا يعني وجود علّة لهذه البداية تفوق الكون، وإذا كانت قوانين الطبيعة معدلة ومهيأة بالشكل الذي تسمح به لنشوء الحياة - كما هو معلوم لدى علماء الطبيعة المعاصرين - فهذا يعني أنّ هناك مصمّمًا قام بتعديلها وتهيئتها، وإذا كانت هناك معلومات في الخلية - كما توضح البيولوجيا الجزيئية - فهذا يثبت وجود التصميم الذكي^(١).

ومما يدعو للاندهاش والدهشة أنّ العلم الحديث يقرر أنّ الأحداث الأولى التي جرت في الجزء الصغير جدًّا من الثانية الأولى من عمر الكون كان لها دور كبير في رسم ملامح الوجود بل وفي التمهيد للحياة على الأرض، يقول «ريتشارد موريس»: «اكتشف العلماء أنّ الأحداث التي وقعت في أول كسر صغير جدًّا من الثانية الأولى بعد بدء الانفجار الكبير يمكن أن يكون لها تأثيرات هي مما يلاحظ اليوم، فقد أصبح الكثيرون من العلماء مقتنعين بأنّ تمددًا قد بدأ عند زمن (عشرة أس سالب ٣٥) من الثانية فتتج عنه ملامح في الكون يمكن ملاحظتها اليوم»^(٢)، ويزيد «بول ديفيز» الأمر إبهارًا فيقول: «يعتقد بعض الباحثين اليوم أنّ البنية المرصودة للكون الحالي على اتساعه قد نشأت كلها في خلال ١ من ١٠ أمامها ٣٢ صفرًا من الثانية الأولى»^(٣)، ويعود فيقول في كتاب له آخر: «في الميكروثانية الأولى والثانية كان

(١) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ٩٦.

(٢) حافة العلم (عبور الحدّ من الفيزيكا إلى الميتافيزيكا) - ريتشارد موريس - ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي - منشورات المجتمع الثقافي - أبو ظبي - ط: أولى، ١٩٩٤م - ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٣) القوى الأربع الأساسية في الكون - بول ديفيز - ترجمة: هاشم أحمد محمد - المجلس الأعلى للثقافة - مصر - ط: أولى - ٢٠٠٢م، ص ٢١.

معدل سرعة تمدد الكون تفوق معدل سرعة تمدده اليوم بتريليون تريليون مرة، وظل يتباطأ بعد ذلك خلال الثانية الأولى، وبحلول الثانية الثانية كان معدل سرعة التمدد قد بلغ واحد على تريليون مما كان عليه في الميكروثانية الأولى^(١)، والميكروثانية هو واحد على مليون من الثانية، ويغلق «ستيفن هوكنج» - العالم الملحد! - دائرة الإبهار لتزداد الصورة توهجاً، فيقول: «يبدو أنّ قوانين تطور الكون ربما تتحطم عند الانفجار الكبير، لأنّ ما سيكون موجوداً عندئذ لن تكون له أية تبعات ملحوظة بالنسبة للوقت الحاضر، لذلك سنكون ملتصقين بفكرة أنّ الانفجار الكبير كان بداية خلق العالم»^(٢)، وإذن ففي الجزء الصغير من الثانية الأولى من عمر الكون كان سلوك الكون - من حيث اختلاف سرعة التمدد بهذه النسب - له دور في هيكله الكون.

لقد تغيرت لغة العلماء في الغرب، بعد الثورة العلمية الجديدة التي زادت العلماء حيرة من مستودع الأسرار الذي فتح عليهم من الكون والحياة، ولقد أصبح وجود الله حقيقة راسية يسلم بها البعض ويتهرب منها آخرون، «فجوده تعالى - كما يقول عالم الفيزياء التطبيقية الأمريكي «جورج هربرت بلونت» - أمر بديهيّ من الوجهة الفلسفية، والاستدلال بالأشياء على وجود الله - كما في الإثبات الهندسيّ - لا يرمي إلى إثبات البدهيات، ولكنه يبدأ بها... والأدلة أنواع، منها الأدلة الكونية، ومنها الأدلة التي تقوم على إدراك الحكمة، ثم الأدلة التي تكشف عنها الدراسات الإنسانية»^(٣).

(١) الجائزة الكونية الكبرى «لغز ملائمة الكون للحياة» - بول ديفيز - ترجمة: محمد فتحي خضر -

مؤسسة هنداوي، ط: ٢٠١٢م، ص ٧١.

(٢) التصميم العظيم «إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى»، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم - نخبة من علماء أمريكا - تحرير: جون كلوفر مونسيما - ت: د. الدمرداش

سرحان - دار القلم - بيروت، ص ٨٥ - ٨٦.

والآن صار كثير من العلماء يفكرون بطريقة أخرى، ويتعاملون مع الحقائق والقوانين الكونية بأسلوب مختلف، فتأمل كيف يفكر عالم مثل بول ديفيز: «هل توجد بين هذه القوى الأربع (الجاذبية والكهرومغناطيسية والنوية الضعيفة والنوية القوية) علاقة؟ هل هذه القوى الأربع مظاهر مختلفة لقوة عظمى أساسية واحدة؟ إذا كانت هذه القوة العظيمة موجودة فسوف يرجع إليها كل النشاط الموجود في الكون، بداية بتشكيل الجسيمات دون الذرية وانتهاء بانهييار أحد النجوم، وإذا كشفنا عن هذه القوة العظمى فسوف تمدنا بقوة تفوق كل تصور، وربما يمكنها أن تفسر: كيف جاء الكون إلى الوجود في المقام الأول»^(١)، وهو يعبر هنا ليس عن رأيه الشخصي وإنما عن رأي كثرة بالغة من العلماء في الغرب.

ومن أهم ظواهر التصميم الذكيّ هذه القوانين التي تعمل في الكون بلا اختلاف ولا اختلال، قوانين الفيزياء مثل قانون كبلر لحركة الكواكب «مربع مدة الدوران يتناسب طردياً مع مكعب نصف قطر المدار»، وقانون نيوتن: «قوة الجاذبية تتناسب عكسياً مع مربع المسافة التي تفصل بين الجسمين»؛ هذه القوانين ثابتة عاملة في أيّ مكان في الكون وفي أيّ زمان من عمره البالغ ١٤ مليار سنة، من أين جاءت هذه القوانين؟ ولماذا لم يكن للكون قوانين غيرها؟ هل تملك الصدف العمياء أو ضربات الحظّ العشوائية أن تهب الكون قوانين كهذه؟ من أين صدرت هذه المعادلات الرياضية المذهلة؟ فالأمر كما قال جاليليو من قبل: «إنّ كتاب الطبيعة العظيم يمكن قراءته فقط بواسطة الذين يعرفون اللغة التي كتب بها، وهذه

(١) ر: القوى الأربع الأساسية في الكون - بول ديفيز - ترجمة: هاشم أحمد محمد - المجلس الأعلى للثقافة - مصر - ط: أولى - ٢٠٠٢م، ص ٣٤.

اللغة هي الرياضيات»، أو كما قال جيمس جينز: «يبدو كأنَّ الكون صمم على نحو رياضي صرف».

لقد انهال الكون عليهم بأسئلته دفعة واحدة؛ كأنَّه يريد أن يوقفهم على عجزهم ومكابرتهم، وفي الوقت ذاته فتح لهم جانباً من صندوقه الأسود؛ كأنَّه يريهم بعضاً مما تعمى أبصارهم عنه من مكامن الإعجاز، ففي البداية كان دارون يتصور أنَّ الخلية كتلة هلامية حية، وإذا بالعلم الحديث يراها مصنعاً هائلاً يولد الطاقة ويصنع البروتينات، وفي البداية كانوا يتصورون أنَّ الجسيمات الأولية منحصرة فقط في الإلكترونات والكوارك المكونة للبروتون والنيوترون، لكن «في عام ١٩٣٦م كان عدد الجسيمات الأولية المكتشفة قد زاد بالفعل من ثلاثة إلى خمسة: الإلكترون والبروتون والنيوترون والبوزيترون والميون... وعلى كلِّ فقد انتهى الأمر بالألّا يتم اكتشاف النيوترينو إلا في عام ١٩٥٦م... وفي أوائل السبعينات وصل عدد الجسيمات الأولية التي تمَّ للعلماء التجريبيين رؤيتها إلى المئات»^(١).

كما أنَّ الكشف الجديدة قلبت تصورهم لنسب المادة والطاقة في الكون رأساً على عقب؛ إلى الحدِّ الذي جعلهم يوماً بعد يوم يزداد إيمانهم بأنَّهم لم يكونوا يعلمون عن الكون إلا قليلاً، فمن جهة اكتشفوا أنَّ حوالي ٩٠٪ من مادة الكون من الهيدروجين وهو العنصر الأبسط والأخف على الإطلاق حيث تتركب ذرته من نواة وإلكترون واحد وتتكون نواته من بروتون واحد ونيوترون واحد، ويليه الهيليوم الذي يمثل ٩٪ من مادة الكون وهو الأخف والأبسط بعد الهيدروجين، حيث تتركب نواة ذرته من ٢ بروتون و ٢ نيوترون، ويبقى ال ١٪ من مادة الكون لباقي العناصر

(١) حافة العلم (عبور الحد من الفيزيقا إلى الميتافيزيقا) - ريتشارد موريس - ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي - مرجع سابق، ص ٢٤.

مثل الكربون والأكسجين والنيتروجين والحديد والرصاص والذهب واليورانيوم، وغير ذلك، وباستثناء الحديد فإن العناصر الأخف أكثر من الأثقل، إلا أن الاكتشاف الأخطر هو أن كل ما نراه من مادة الكون ليس إلا كما تُرى قمة جبل جليد غائص في المحيط، فالمصادر العلمية الموثقة تقول: إن المادة المرئية في الكون تمثل ٥٪ من كتلته، وتمثل المادة غير المرئية ٢٧٪ من كتلته، بينما تمثل الطاقة المظلمة ٦٨٪ من كتلته، ولا يعرف العلماء حتى الآن كنه الطاقة المظلمة ولا المادة المظلمة، وتقول مصادر أخرى إن النسبة ٤ للمادة المرئية و٢٢ للمادة المظلمة و٧٤ للطاقة المظلمة! وفي الأخير تلاعبهم الجسيمات تحت الذرية؛ كلما أرادوا رصدها حيرهم سلوكها؛ فبينما تبدو جسيمات إذا بها موجات، وبينما تبدو موجات إذا بها جسيمات، ثم إذا أجهدتهم غيرت لهم اللعبة وخايلتهم بطريقة أخرى، هكذا: كلما قست السرعة بدقة كان قياس الموضع أقل دقة، والعكس بالعكس؛ فلم يجدوا اسمًا لهذه الملاعبة الكونية إلا ذلك الاسم المترع حيرة وإبلاسا: مبدأ اللايقين، الذي صاغه «هايزنبرغ»^(١).

لذلك فإن الثورة العلمية الجديدة المضادة للإلحاد في الغرب قوية برغم التضيق، أقل آثارها التشكيك فيما قام عليه الإلحاد من غرور علمي، هذا الخروج على العلموية اتخذ صورًا عديدة في التعبير عن نفسه، فهذه أقوال نسوقها لكثير من المشاهير في الوسط العلمي والفلسفي الغربي: نقل «لي ستروبل» عن «آلان سانداك» أعلم رجل في الكونيات في زمانه، قال: «إن علمي هو الذي قادني إلى أن العالم أكثر تعقيدًا مما يمكن تفسيره بالعلم؛ فمن خلال ما هو فوق الطبيعة

(١) التصميم العظيم «إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى» - ستيفن هوكينج وليونارد مولدينو - ترجمة: أيمن أحمد عياد، مرجع سابق، ص ٨٩.

فقط يمكنني فهم سرّ الوجود»^(١)، ونقل «أنطوني فلو» عن «أندي نول» أستاذ علم الأحياء في هارفارد قوله: «إذا أردنا تلخيص ما نعرفه عن التاريخ العميق للحياة على الأرض، عن أصل الحياة، عن مراحلها المتعددة التي أعطت فرصة لنشأة الأحياء، فإنّ علينا أن نعترف بأننا ننظر هنا من خلال زجاج معتم؛ نحن لا نعرف كيف بدأت الحياة على كوكب الأرض، ولا نعرف متى بدأت الحياة على وجه الدقة، ولا نعرف ما هي الظروف التي بدأت فيها»^(٢)، كما نقل عن رئيس الجمعية الدولية لدراسة أصل الحياة «أنطونيو لازانو» قوله: «في الحقيقة قد لا نكون قادرين على معرفة مسيرة الحياة على الإطلاق»، وعن المحرر الفخري لمجلة «الطبيعة» السير «جون مادوكس» قوله: «متى ثم كيف تطور التكاثر الجنسي؟ على الرغم من مرور عقود من التخمين لا زلنا لا نعرف!»، وعن العالم «جيرالد شرويدر» قوله: «إنّ وجود الظروف التي ساعدت على وجود الحياة لا تفسر كيف خرجت الحياة إلى الوجود»^(٣)، كما نقل عن الفيلسوف البريطاني البارز «ريتشارد سوينيرن» قوله: «وجود الكون المادي المعقد عبر زمن متناهٍ أو لا متناهٍ أكبر بكثير من قدرة العلم على التفسير»^(٤)، وعن نفس الفيلسوف قوله: «إذا لم يكن لدينا قوانين في

(١) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ٨٨.

(٢) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيته» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت، ط: أولى - ٢٠١٥م، ص ١٥٤.

(٣) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيته» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت، ط: أولى - ٢٠١٥م، ص ١٥٥.

(٤) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيته» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت، ط: أولى - ٢٠١٥م، ص ١٦٦.

بداية الكون لأنّه لم يكن هناك أوضاع قبل ذلك فإنّه لا يمكننا تفسير الكون»^(١)، ونقل «مراد هوفمان» عن ميخائيل بختين الأديب الروسي قوله: «لم يحدث شيء بشكل نهائي في العالم، حتى الآن لم تنطق كلمة العالم الأخيرة، ولا الكلمة الأخيرة عن العالم، العالم حرّ ومفتوح، كل شيء ما يزال في المستقبل، وسيظل دائما في المستقبل» قال هذا عام ١٩٢٩ م^(٢).

هذه الأقوال وغيرها كثير تمثل خروجًا صارخًا للعقلية الغربية عن المادية العلمية أو ما يحلو للبعض أن يسميه مذهب العلموية، وجميعها تمثل صورة من صور الثورة العلمية الجديدة ضد الاتجاه الإلحاديّ الذي درجت عليه الحضارة المعاصرة من أول يوم، ولا يزال الكون يفاجئهم ويتطاول مع وعد الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وبعدُ فإنّنا لم نكن بحاجة إلى سرد أدلة على وجود الله، فوجود الله تعالى أظهر وأبين وأجلى من أن يفتقر إلى دليل، وكان يكفي الخلق جميعًا مقولة الأعرابي البسيط: البعر يدلّ على البعير، وأثر السير يدل على المسير، كان يكفي أن يقال للعالم الملحد أو اللاأدريّ: أيهما أكثر دقة وتعقيدًا: ساعة اليد أم الخلية الحية؟ وإذا كان بحقّ عالمًا فلن يتردد في القول بأنّ الخلية الحية أشدّ تعقيدًا وأروع تصميمًا من ساعة اليد؛ فعندئذ يقال له: فهل تصدق أنّ ساعة اليد صُنعتْ بلا صانع وتعمل بما

(١) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيته» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت، ط: أولى - ٢٠١٥ م، ص ١٦٧.

(٢) خواء الذات والأدمغة المستعمرة - د. مراد هوفمان - ترجمة: عادل المعلم - مكتبة الشروق الدولية - مصر - ط: ثانية - ٢٠١١ م، ص ٣٥.

أودعَ فيها من قوانين بلا مُصمَّم ذكيٍّ؟ فإن قال: لا فقد انهدم منطقهُ، وإن قال: نعم فقد أضحك على نفسه الثقلين.

إنَّ وجود الله تعالى ثابت بالبداهة قبل الأدلة القطعية التي سقنا بعضها آنفاً، وسوقنا للأدلة على هذا النحو لا يعدو أن يكون تنزلاً للضرورة، والقرآن الكريم تعرض لإثبات الربوبية، وإثبات الربوبية أوسع وأشمل وأدقّ وأعمق؛ لأنَّه يثبت وجود الله من باب أولى، ولأنَّ خطاب الله تعالى لعباده لا ينتزل لضرورة نضطر إليها نحن البشر، وإن كنا نطمع في أن يسعنا حلم الله وتسعنا مغفرته؛ إذ إنَّه يعلم نيّتنا ويعلم كذلك حاجتنا واضطرارنا، وحسبنا أننا التزمنا المنهج القرآني الذي هو أحكم وأسلم، فاللهم غفرًا.

أجل.. إنَّ وجود الله أمرٌ بدهيٍّ والإيمان به ضرورة حتمية، أمرٌ بدهيٍّ إلى حدٍّ أن إنكاره إنكارٌ لوجودنا نحن، وجحدٌ لحقيقة وجود كل ما تقع عليه عيننا، وإلى درجة أن تجاهله والتنكر له ازدراء للعقل، واحتقار للفطرة، وغيوبة عقلية وشعورية لا تقترب من تخومها غيوبة السكارى أو المغمى عليهم، ومن أكون لأحكم - حتى - بأنَّ الله موجود؟ من أكون لأجترئ على أن أصدر حكمًا عقليًّا في مسألة وجود الله عزَّ وجل؟، لتصير بمشاركتي قضية خلاف! إنَّه لولا الاضطرار لما تجشمت هذا الخطر؛ إذ كيف - وأنا صنَّعته ويدهُ في فمي وعينه تحرسني وعنايته تحفُّني ورعايته تكلؤني بالليل والنهار - أن أتجشم مناقشة وجوده؟ وكما أنَّ وجوده ضرورة حتمية بدهية؛ فكَذلك «الإيمان بالله ضرورة عقلية وفطرية... فالله تعالى خلق الإنسان خلقة تقتضي الإقرار بأنَّ له خالقًا موجدًا مدبرًا... فالإيمان بوجود الله لا يختلف من حيث مبدأ الفطرية عن إيمان الناس بالمبادئ الفطرية الأخرى، كالإيمان بأنَّ

الجزء أصغر من الكل، وأن الواحد أقل من العشرة»^(١)، كل ما في المسألة أن مناقشة الشكاك الموسوسين نقلت القضية من البدهيات إلى المناقشات؛ ليضطر أمثالنا - والله يغفر لنا - أن يخوضوا في إثباتها بالاستدلال.

كما أن الإيمان بالله ضرورة معرفية، ومعنى هذا الأصل أن المعرفة الإنسانية لا يمكن أن يقوم لها نظام ولا يستقيم لها قانون ولا يصلح لها حال ولا ينضبط لها استدلال إلا مع الإيمان بالله... فالمعارف البشرية لا يمكن أن تكون كلها ضرورية، ولا يمكن أن تكون كلها نظرية، فلا بد من التسليم بأن بعضها ضروري وبعضها نظري... وإذا ثبت أن المعرفة الإنسانية لا بد فيها من الاستناد إلى الضرورات العقلية التي ينتهي إليها الاستدلال؛ فإن ثبوت تلك الضروريات في الواقع لا يمكن تصوره إلا مع وجود المطلق؛ لكون الضروريات لا تكون إلا مطلقة، والمطلق لا يثبت إلا بالمطلق... ولا يوجد مطلق في الوجود إلا الله تعالى، والمنكر لوجود الله لا يمكنه أن يسلم بالمعاني المطلقة؛ لأن كل ما يحصله بحسه وعقله الإنساني القاصر لا يكون إلا نسيباً^(٢).

وكذلك الإيمان بالله ضرورة نفسية... ووجه ذلك أن كل إنسان لا بد أن يكون مريداً قاصداً... والمرادات لا تخلو من حالين، إما أن تكون مرادات لغيرها، وإما أن تكون مرادات لذاتها... ولا بد للإرادة الإنسانية أن تنتهي في تعلقها إلى مراد لذاته؛ لأن تعلقها بشيء مراد لغيره يجعلها في قلق مستمر... ولا يمكن أن يكون

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث - د. سلطان عبد الرحمن العميري - تكوين للدراسات - الخبر السعودية - ط: ٢ - ٢٠١٨م، ص ١٥ - ١٦.

(٢) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث - د. سلطان عبد الرحمن العميري - مرجع سابق، ص ١٦ - ١٨.

المخلوق مرادًا لذاته؛ لأنَّ وجوده ليس من ذاته^(١)، وهو أيضًا ضرورة أخلاقية اجتماعية، ومعنى هذا الأصل أنَّ الناس لا يمكن أن يقيموا لأنفسهم نظامًا أخلاقيًا صالحًا لضبط السلوك الإنساني للناس وتسيير حياتهم في الأرض إلا مع الإيمان بوجود الله... وإذا ثبت أنَّ الأخلاق لا بد أن تقوم على مبادئ مطلقة وقوانين ثابتة، وأنَّ قيامها على النسبية يؤدي بها إلى الفساد؛ فإنَّ الوصول إلى المبادئ المطلقة لا يمكن أن يكون إلا مع الإيمان بالله تعالى^(٢)، حتى إنَّ حقوق الإنسان قضية ميتافيزيقية بحتة، فقولك إنَّ البشر متساوون ممكن فقط إذا كان الإنسان مخلوقًا لله، فالمساواة بين البشر خصوصية أخلاقية، وليست حقيقة طبيعية أو مادية أو عقلية، فالناس بالمنظور الماديَّ أو الطبيعي أو العقلي بلا شك غير متساويين؛ وتأسيسًا على الدين فقط يستطيع الضعفاء المطالبة بالمساواة^(٣).

لم نتعرض لأدلة أخرى كثيرة، ولم نتوسع في البرهنة ولم نستغرق في تمطيط المقال؛ حتى لا يتحول الطرح إلى جدل فلسفيٍّ عقيم وباهت، وهو ما حرصنا من بداية الطريق أن نتجانب عنه، وختام حديثنا نعلن إيماننا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبكلِّ الغيب الذي أخبرنا به كتاب الله، ونقول ونصدق ونغرد: (رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا).



-
- (١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث - د. سلطان عبد الرحمن العميري - مرجع، ص ١٨ - ١٩.
- (٢) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث - د. سلطان عبد الرحمن العميري - مرجع سابق، ص ٢٠ - ٢١.
- (٣) موسوعة الرد على الملحدين العرب - د. هيثم طلعت - دار الكاتب للنشر والتوزيع - الإسماعيلية - مصر، ط: أولى - ٢٠١٤م، ص ٢٣.



الفصل الثالث

تهافت الإلحاد

لم أكن مندهشاً وأنا أطلع للبروفيسور الأمريكي «جيفري لانغ» كتابه: «حتى الملائكة تسأل» والذي يحكي فيه بلغةٍ مُترَعَةٍ بالصدق مُفَعَمَةٍ بالروحانية قصةً إسلامه، ولا وأنا أقرأ بعمق للعائد من الإلحاد إلى محضن الإيمان الفيلسوف البريطاني «أنطوني فلو» كتابه: «هناك إله»؛ ذلك لأنّ هذا هو الوضع الطبيعيّ عندما يُخلّى بين الإنسان وبين فطرته، وعلى التوازي لم أكن مندهشاً وأنا أتصفح أدلة بعض عتاة الإلحاد من أمثال «ريتشارد دوكنز» و«ستيفن هوكينج» ولم أتفاجأ بما اشتملت عليه من مغالطات تنحطّ إلى مستوى (السوءات الفكرية!) وينحدر بها التنظير إلى مستوى (العهر الأكاديمي!)؛ ذلك لأنني على يقين من أنّه لا يخرج على الفطرة إلا فكر انتكس في الحمأة، ولا ينسجم مع الفطرة السوية إلا فكر سليم مستقيم.

إنّما تملكني الدهشة عندما أرى أشخاصاً أُلحدوا وقد كانوا من قبل مسلمين! وسواء أكان ذلك بسبب فشل الحركة الإسلامية، وخذلانها لآمال الشباب، وتَسبُّبها في ضياع ثورة الشعوب العربية، أو كان بسبب الغارات الفكرية الشرسة التي واكبت الانقلابات، واستثمرت جَوَّها المُوَسَّخ بالغيوم، فإنّ المبرر العقليّ والمُسَوَّغ المنطقيّ منعدمٌ بكل تأكيد لدى هؤلاء جميعاً، وما يُبدونه من ثقة واعتداد ليس سوى حالة نفسية، تستطيع أن تقف على حقيقتها إذا تصورت إنساناً يُبحرُ بقاربه على ثبج

الكثبان الرملية، ويجدف بعناد وكبرياء، غير آبه بما أَلَمَّ به من النصب والإعياء، فمن يهديه من بعد الله؟!

رويدك أيها المندفع بوثوقية مفرطة نحو اللامعقول، فإنَّ كافَّة النظريات التي قام عليها ذلك الهرم المصنوع من الحطب قد انهارت تحت مطارق العلم ذاته، وفي مقدمتها نظرية «الصدفة!» ونظرية «الضرورة!» ونظرية «التطور!»، وغيرها من الفروض الوهمية «الميتافيزيقية!» قد قُضِيَ عليها بمنطق العلم ذاته، فعلى سبيل المثال: قانون الطاقة المتاحة، الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق، والذي يقول إنَّ الكون يفقد الطاقة باستمرار وإنَّ الحرارة تنتقل دوماً من وجود حراري إلى وجود حراري أقل، والعكس ليس ممكناً، بما يعني أن الكون سائر إلى فقد الطاقة ومعها فقد كفاءته للعمل، وهذا يعني أن الكون ليس أزلياً؛ لأنه لو كان أزلياً لفقد طاقته منذ زمن بعيد، وإذا لم يكن أزلياً وكان حادثاً فمن الذي أحدثه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٣٦﴾، ومثله في الإفضاء إلى النتيجة ذاتها نظرية الانفجار العظيم، التي حاول الكثيرون من الملاحدة الفرار منها بأساليب مختلفة، ثم اضطروا للاعتراف بها والتسليم لمقتضاها الحتمي وهو أنَّ الكون له بداية، وبداية مزلزلة.

أمَّا نظرية التطور التي فُتِنَتْ بها الإنسانية دهرًا طويلاً فلا توجد نظرية نالت من التَّفنيد العلمي ما نالته هذه النظرية البائسة، والنقض والإبطال طال جميع مراحل النظرية بدءًا من ظهور الحياة في خلية حية واحدة وبسيطة، يقول عالم الكيمياء الحيوية البلجيكي «كريستيان دو دوف»: «إذا حسبنا فرصة ولادة خلية بكتيرية واحدة - وهي أبسط أنواع الخلايا - بسبب تجمع ذراتها المكونة (عشوائيا) فإنَّ

الأبدية لا تكفي لخلق تلك الخلية المفردة! وقد ثبت رياضياً أن احتمال تشكل أبسط خلية حية من السائل الحيوي - الذي يفترض العلماء تكوُّنه من ٢٠ حمضاً أمينياً توضعها يساري - احتمال يعادل احتمال أن يقوم إنسان برمي مكعب النرد ٥٠ مرة متتالية فيظفر في كل مرة بالرقم ٦ دون إخلال.

وسوف نتعرض لمزيد من التنفيذ لهذه النظرية وأمثالها، لكن بعد أن نذكر ببعض ما تعرضنا له في الفصل الأول من الحديث عن الأزمة الأبيستمولوجية في الحضارة المعاصرة، والتي يكمن وراءها الهوى الغليظ الجامح، وربما يندهش المرء إذا علم أن الأزمة قبل كل شيء أزمة أبيستمولوجية معرفية، لكنّ الدهشة سوف تزول إذا علمنا أن أخطر مظاهر هذه الأزمة تركزت في إدارة الظهر (للغائية) وما وراء الكون المنظور، فوقوف المناهج المعرفية في العصر الحديث عند حدود التجربة الحسية يجعل النتائج العلمية لا تتجاوز حدود المادة، ولا تفكر فيما وراءها من أسباب، إلى حدّ إنكار (الغائية) في كل ما يجري في هذا الكون المحكم، وإلى حدّ التنكر الفج للعِلَّة والسببية!

ولعل من أروع ما قاله «ديفيد بيرلنسكي» في كتابه الرائع «وهم الشيطان» أثناء رده على ديفيد هيوم - الذي دعا إلى إلقاء كتب الدين في النار بزعم أنها لا تشمل لا على تفكير مجرد يتعلق بالكم والعدد ولا على تفكير تجريبي يتعلق بحقائق الوجود - قوله: «مهما كان العنوان الذي حمل ديفيد هيوم على الإدلاء بآرائه؛ فإنّ حُجَجاً كهذه حين تطبق على ذواتها تعود على نفسها بالإبطال؛ إذ إنّ تقارير هيوم لا تشمل بدورها لا على تفكير مجرد يتعلق بالكم والعدد، ولا على تفكير تجريبي يتعلق بحقائق الوجود، لقد قيلت هكذا لكي تؤخذ على عَلائِها، وهذا جمع بين الكبر والسماجة».

وبعد أن تعرضنا في الفصل الثاني للبرهنة على الربوبية، والاستدلال علمياً ومنهجياً على وجود الله تعالى، يأتي دور الرد على الملحدين والنقض والإبطال لنظرياتهم، تلك التي تبين لنا من خلال ما سبق عرضه في الفصلين السابقين أنها ليست نظريات بالمعنى المنهجي الأكاديمي، وأنها مجرد فروض يعوزها الدليل القاطع والبرهان الساطع، ومع ذلك فنحن مضطرون لتجشم دحرها ووأد فتتها، على الرغم من علمنا أنها لا تعدو أن تكون شبهات وترهات لا تقام على ساق ولا تستند إلى دعائم ثابتة، وسوف نسلک في سبيل ذلك ثلاث مراحل، على النحو الذي سيأتي، والذي سيفصح عنه السياق.

بطلان فكرة التطور الذاتي للكون والحياة

أول من قال بالتطور هو «دارون»، لكن فكرة التطور هذه تُعدُّ من أهم المبادئ الأساسية والقيم الحاكمة المعيارية في الفكر الحدائي الذي قامت عليه الحضارة المعاصرة، وربما كانت فكرة التطور في الفكر الحدائي الإنساني تالية للنظرية الداروينية، ولذلك فالداروينية البيولوجية أسبق من الداروينية الاجتماعية، لكن التطور كفكرة وعقيدة ومبدأ وتطلُّع ضاربٌ بجذوره في التربة الغربية إلى أوائل عصر النهضة، والعطب الذي أصاب هذه الفكرة على المستوى العقلي الإنساني يتمثل في الإيمان بأن التطور ناقلٌ إلى الأمثل والأفضل دوماً، بغض النظر عن قيمته في ذاته بالنسبة للسابق عليه؛ وعليه فإن الجديد هو الأفضل دائماً، فهل تُعدُّ الداروينية خاضعة لهذه المسلمة الفكرية التي لها بالغ الأثر على المستوى الاجتماعي والأخلاقي؟

منطقياً ينبغي أن تكون كذلك، لكن الواقع ليس كذلك، ومنطوق النظرية

ومفهومها ليس كذلك أيضًا؛ مما يؤكد حالة الاستثمار الموجه للفكرة بعد تحريف معناها، ليس هذا هو المهم، ولكنه مجرد مدخل للتمهيد لما سيأتي، فبال تأكيد نظرية دارون تنصّ على أنّ التطور البيولوجي ينتقل بالحياة والأحياء من الأدنى إلى الأعلى، ومن البساطة إلى التعقيد، وأنّ الانتخاب الطبيعي يفضي إلى أن يكون البقاء للأصلح، هكذا تقول النظرية، ولا يوجد في الداروينية كلها ما يخالف ذلك ولو بمقدار شعرة بيضاء في جلد ثور أسود.

غير أنّ المفاجأة التي تقوض فكرة التطور البيولوجي الدارويني من جذورها وأساسها هو ما يسمونه «الإنتروبيا»، وهي ظاهرة متفشية ليس في الأحياء فقط وإنّما في الكون كله، وليس هناك من العلماء من يشكك مجرد التشكيك فيها، والإنتروبيا تعني الفوضى والعشوائية التي تصيب أيّ نظام مغلق في هذا الكون سواء كان نظامًا فيزيائيًا أو بيولوجيًا بانتقاله تلقائيًا وآليًا عبر أيّ عملية ذاتية، هذه الظاهرة تعدّ واحدة من نتائج القانون الثاني للديناميكا الحرارية، بما يعني أنّ المفترض بحسب الإنتروبيا أن تتقل الحياة بالعمليات الذاتية الداخلية التلقائية من الأحسن إلى الأسوأ، سواء على مستوى الكون أم على مستوى الأحياء.

ولقد أثبت العلم - بهذا - أنّ فكرة التطور ذاتها غير صحيحة؛ لأنّ الأمر المشترك في معظم الطفرات أنها انتكاسية، أي تكون للأسوأ لا للأفضل، والكائن الناتج عنها يكون أقل تطوراً من سلفه، هذه الحقيقة أكدتها مجلة «سينتيфик أمريكان» بقولها: «أدت الطفرة في الجينات في أكثر من تسع وتسعين بالمائة من الحالات إلى تأثيرات ضارة، وخلل في وظائف الأجهزة والأعضاء في الكائن الحي، وقد تحدث «روبرت جيمس غالغي» عن مبدأ «الأنتروبيا» وأوضح أنّ عناصر المادة تميل كلها إلى الاستقرار، فعندما يطور الإنسان المواد ثم يتركها للطبيعة فإنّها تتحلل وتعود

لعناصرها الأولية، وهذا سلوك ضد مبدأ التطور الذاتي، فما الذي جعل العناصر الأولية للمادة تتطور إلى مادة حية؟! الوقت ومرور الزمن يهدم ولا يبني»^(١).

وهذا المبدأ يسلم به حتى كثير من الملاحدة واللاأدرية، يقول «برتراند رسل»: «ليس هناك قانون كوني ينص على التقدم بل هناك فقط تأرجح بين الصعود والهبوط، مع ميل بطيء بوجه عام إلى الهبوط، بسبب فقدان الطاقة... ويتضح لنا مما نملكه من معرفة في الوقت الحاليّ أنّه لا يمكننا أن نستقي على وجه صحيح من التطور فلسفة متفائلة في نهاية المطاف»^(٢)، ويقول «ستيفن هوكينج»: «في أيّ نظام مغلق تتزايد الأنثروبيا والاضطراب دائماً بالوقت... الأشياء تنزع دائماً لأن يختلّ نظامها... القانون الثاني للديناميكا الحرارية ينص على أن الإنثروبيا (العشوائية) في نظام معزول لا يمكن أن تتناقص، بل تزداد أو تبقى ثابتة مع مرور الوقت، بعبارة أخرى: العمليات الطبيعية تسير في اتجاه يزيد من الفوضى أو العشوائية في النظام... مثال بسيط على ذلك هو انتقال الحرارة: تنتقل الحرارة تلقائياً من الجسم الساخن إلى الجسم البارد، وليس العكس، إلا إذا تم بذل شغل خارجي على النظام، هذا يعني أن الطاقة لا يمكن تحويلها بالكامل إلى عمل مفيد دون فقدان جزء منها كطاقة حرارية مهدورة»^(٣).

وبموجب هذه النظرية الثابتة يكون القول بالتطور سواء في نشوء الحياة وارتقائها

(١) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط: أولى - ١٤٣٦هـ، ص ٢٠ - ٢١.

(٢) الدين والعلم - برتراند رسل - ترجمة: رمسيس عوض - دار الهلال - بدون ص ٧٦.

(٣) تاريخ موجز للزمان من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء - ستيفن هوكينج - ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، مرجع سابق، ص ١٢٧.

أو في تطور الكون وتصميمه بمثابة التجديف بعنف ضد التيار الطبيعي الجارف الهادر، والذي أقصده هنا هو التطور الدارويني، والذي تحيله وتمنعه ظاهرة الإنتروبيا هو التطور الدارويني، أي التطور الذي تجري عملياته داخلياً في نظام مغلق وبشكل ذاتي لا يتوقف على تدخل يد خارجية؛ معتمداً على قانون الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح، وعلى طول الزمن مستفيداً من الصدف العمياء والعشوائية البحتة وضربات الحظ، أمّا التطور الذي فهمه البعض في البداية وتصوروا أنه فحوى نظرية داروين، فهو الذي يجري بتدبير فوقيّ، وهذا - وإن كان غير صحيح ولا يتفق مع النصوص القرآنية إلا بتأويل غير سائغ - مقبول عقلاً ولا يُعدُّ إلحاداً، لكنه في الواقع ليس هو مقصود دارون ولا هو مقصود الداروينية على وجه العموم، ومع أنني لست منحازاً للقول بهذا التطور الذي جرى بتدبير إلهي فوقيّ؛ بسبب مخالفة حلقاته ولاسيما الإنسان لظاهر القرآن، مع عدم وجود ما يضطرنا للقول به، فإنني أودُّ أن أؤكد هنا أن هذا الاتجاه يفضح الداروينية، يُبرز خللاً جوهرياً في الأصل الذي بنيت عليه، وهو أن الاضطرارَ إلى ركوب الصعب وتلفيق الحيل اللغوية مع قيام احتمال وإمكانية وقوع التطور بتدبير قوة وراء الكون اضطراراً مصطنع ومغالطة جذرية ومكابرة ومجازفة؛ ليس لها من سبب إلا الجحود لحقيقة الإله؛ بسبب العداء مع الدين أو بالأحرى مع الكنيسة.

إنَّ مجرد تصور التطور الذي يقع ويتكرر دونما مُطوّر ركوبٍ للصعب وامتطاء لظهر المجازفة الميتافيزيقية، فلا يوجد شيء في الواقع الفيزيائي يتطور من تلقاء نفسه، إلا في خيال دارون ومن تبعه من الهاربين من الله الفارين من تكاليف الإيمان بالله، ولا قيمة يضيفها الزمن في هذه الفرية الخيالية، فالدقيقة فيه كبلايين السنين،

فلو ترك الهاتف الجوّال لحاله لن يتطور فيما يتعلق بذكاء الأجهزة من مستوى لآخر أعلى منه، إلّا بذكاء يقوم بتطويره، ولو مكث من الزمن - على فرض إمكانية مكثه - بلايين السنين، وقل مثل ذلك في كل ما تراه مصنوعاً، ومن حيث الأصل لا يمكن تصور جهاز وجد بسبب مادة تطورت من تلقاء نفسها، وبسبب الانتخاب الطبيعي، دون تدخل يد الصانع، ولست أشك لحظة في أنّ العقل الإنسانيّ وهو يتلقى نظرية دارون ويسير معها خطوة خطوة لا يكفّ عن الوثوب صوب الجهة التي تدير هذه العملية الجبارة؛ فلا يردّه في كل مرّة إلا تترس دارون بعامل الزمن، مع استعماله لهذه الشعوذات اللغوية السحرية: «ضربة حظّ» «صدفة» «انتخاب طبيعيّ»، ولكن هيهات! فلا ثبات ولا قرار لما ليس له من دافع إلا الفرار، ولو أنّك جمعت ملايين القطط، وأعطيت كلّ قطّة جهاز كمبيوتر، وتركتها لملايين السنين تضرب كلها على الكيبوردات؛ فلن تخرج واحدة منها في نهاية المطاف مسرحية لشكسبير.

والأمر كما قال أحد الظرفاء بعقلانية تامّة: «يمكننا أن نفترض طريقاً يتم فيه بناء مصيدة الفئران لأول مرة كالتالي: تظهر المطرقة كنتيجة لمضاعفة عتلتين في مخزننا الخلفيّ، ثم تتصل المطرقة مع القاعدة، ونتيجة لخلط بعض العيدان الخشبية يقفز نابض من ساعة الجدّ القديمة، التي كانت تستخدم كجهاز لضبط الوقت، ثم تأتي عارضة التشييت من قشة تخرج من علبة مياه غازية، ويأتي الملقط من غطاء علبة جعة، ولكن هذا لا يحدث بهذه الطريقة إلا إذا كان أحد ما أو شيء ما يوجه هذه العملية^(١).

(١) صندوق دارون الأسود - د. مايكل بيهي - ترجمة: مؤمن حسن وآخرين - دار الكتاب للنشر والتوزيع - مصر - ط: أولى - ٢٠١٤م، ص ١٩٥ - ١٩٦.

التعقيد يستدعي التصميم ويحيل العشوائية

عندما تحدث العلماء عن ظاهرة التعقيد لم يقصدوا أيّ تعقيد، وإنما قصدوا على وجه الدقة التعقيد المفيد إفادة تحتم التوجيه وإرادة التصميم، أطلقوا عليه: (التعقيد غير القابل للاختزال)، وأحياناً: (التعقيد المخصص)، وأكدوا أنّ وجود التعقيد كافٍ تماماً في إبطال فكرة التطور وفكرة الصدفة والضرورة؛ إذ تقوم جميعها على افتراض البساطة الأولية، حتى دارون نفسه صرح بأنّه إذا ثبت التعقيد سقطت نظرية التطور، ونبدأ هنا بذكر ما نقله ثلاثة من العلماء الغربيين الكبار عن ألبرت أينشتاين، حيث قالوا في كتابهم «العلم ودليل التصميم في الكون»: «قال ألبرت أينشتاين ذات مرة: ينبغي في العلم أن نتصور الأمور بسيطة قدر الإمكان، لكن ليس إلى حدّ جعلها أبسط مما هي عليه فعلاً.. الفلسفة المادية العلمية في القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين تصر على أنّ كل الظواهر يمكن تفسيرها ببساطة بإسنادها إلى الصدفة/الضرورة... هناك بعض الأشياء الموجودة والأحداث التي لا يمكننا حقاً تفسيرها بإسنادها إلى هذين النمطين المزدوجين للسببية المادية... إنّنا عندما نواجه أشياء موجودة أو أحداثاً تظهر صفات مركبة من التعقيد والتخصيص (معيّار التعقيد المخصص) نعزوها - وبشكل روتينيّ وعلى نحو صحيح - لا إلى الصدفة/الضرورة، بل إلى مصمم ذكيّ... وبوضوح أكثر نحن نجد معايير التعقيد المخصص في الأشياء التي صممتها عقول بشرية أخرى»^(١).

ويقول «مايكل بيهي» في كتابه «صندوق دارون الأسود»: «البنى الحية المعقدة

(١) العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة: رضا زيدان - مكتبة مؤمن قريش - السعودية - الخبر - ط: أولى - ٢٠١٦م، ص 58 - 59.

تملك تعقيداً غير قابل للاختزال، أي أنها لا تؤدي وظيفتها إلا إذا كانت كل أجزائها مركبة معاً»^(١). ويُعدُّ هذا تعريفاً لمفهوم: (التعقيد غير القابل للاختزال)، ويحاول مايكل بيهي - مع زميليه الذين شاركاه في تأليف كتاب «العلم ودليل التصميم في الكون» - تفسير هذا المفهوم وتوضيح دلالاته؛ على هذا النحو: «إنَّ الأنظمة أو التسلسلات المعقدة للغاية... دائماً ما يحدثها مصمم ذكي... حيث إنَّ التابع المعقد يستعصي على أن يعبر عنه بصيغة بسيطة... من ناحية أخرى فالتخصيص توافق أو مطابقة بين حدث ما أو شيء ما وبين الأنماط المستقلة أو المتطلبات الوظيفية»^(٢)، وفي موضع آخر يقررون أنه: «لتفسير التابع المخصص في البروتين نادى أحد العلماء الحاصلين على جائزة نوبل بأننا بلا أدنى شك بحاجة إلى شفرة»^(٣).

ويؤكد عالم الفلك وفيزياء الكواكب الأمريكي «روبرت جاسترو» في كتابه «عمالقة حمر وأقزام بيض» أنَّ «السنوات البليون الأولى التي سبقت ظهور الحياة كانت كصفحة بيضاء في تاريخ الأرض، وكل بقايا الأحافير التي وجدت في الأوقات اللاحقة في الصخور لا تدل على بداية بسيطة للحياة؛ بل تدل على العكس من ذلك، فقد كانت تضم معظم التعقيدات البيوكيميائية للخلايا الحية والتي نعرفها اليوم» ويقرر عالم الرياضيات «ديفيد بلوك»: «أننا نعيش في كون كل ما فيه محسوب؛ ليكون بيتنا لنا»، أمَّا عالمُ الرياضيات والفيزياء النظرية البريطاني

(١) صندوق دارون الأسود - د. مايكل بيهي - ترجمة: مؤمن حسن وآخرين - دار الكتاب للنشر والتوزيع - مصر - ط: أولى - ٢٠١٤م، ص ١٩٤.

(٢) العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة: رضا زيدان، مرجع سابق، ص ٦١ - ٦٢.

(٣) العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة: رضا زيدان، مرجع سابق، ص ٨١ بتصرف.

«فريمن دايسون» فيقول: «كلما قمت بفحص هذا الكون ودرست تفاصيل تكوينه؛ وجدت دليلاً إضافياً على أن الكون يعرف أننا قادمون»، ويضيف عالم الرياضيات والفيزياء النظرية البريطاني «جون ديفيد بارو» الحاصل على الميدالية الذهبية للجمعية الفلكية الملكية: «هناك معادلات رياضية، تتمايل على الورق، تخبرنا: كيف يسلك هذا الكون بأسره!».

ومن أمثلة التعقيد غير القابل للاختزال تركيب جزيء البروتين الذي يعدّ أهم لبنات تكوين الخلية الحية، فمن الثابت أن «جزيء البروتين الواحد يتكون من عدد من سلاسل طويلة ومعقدة من الأحماض الأمينية التي يدخل في تركيبها عناصر الكربون والأيدروجين والنتروجين والأكسجين وأحياناً الكبريت، وقد حسب عالم الرياضيات السويسري تشارلز يوجين عدد احتمالات تخليق جزيء واحد من البروتين الذي يدخل في تركيب الخلية الحية، فوجد أن الفرصة لا تنهياً عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ إلى رقم مكون من ١٠ أس ١٦٠، وينبغي لكي يحدث هذا صدفة أن تكون كمية المادة التي سيتم تخليق جزيء واحد من خلال تفاعلاتها بمحض الصدفة أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات.. هذا ما نقله عنه العالم الكندي «فرانك ألن» أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا»^(١).

وقد نقل «روبرت جيمس غالغي» عن «فريد هويل»: «المشكلة التي يواجهها علم الأحياء هي الوصول إلى بداية بسيطة، بقايا الأحافير لأشكال الحياة القديمة التي وجدت في الجبال لا تكشف عن بداية بسيطة؛ لذا فإنّ نظرية التطور تفتقر إلى

(١) الله يتجلى في عصر العلم - نخبة من علماء أمريكا - تحرير: جون كلوفرمونسيما - ترجمة: د.

الدمرداش سرحان - دار القلم - بيروت ص ١٥ - ١٦.

الأساس الأول اللازم لتقوم عليه»^(١)، كما نقل عن عالم البيولوجيا الجزيئية «مايكل ديتون» جواباً على سؤال الخلية البسيطة: «علم الأحياء الجزيئي أظهر أنه حتى أبسط أنظمة الحياة على أرضنا اليوم، أعني الخلايا البكتيرية، هي كائنات معقدة بشكل كبير، فكل خلية تُعدُّ مصنعاً مصغراً مليئاً بمعدات جزيئية ذات تركيب مذهل ومعقد، مكون من مئات الآلاف وملايين الذرات وهي أكثر تعقيداً من أي جهاز صنعه الإنسان، ولا نظير لها إطلاقاً في العالم غير الحي»^(٢).

وإذن فالبساطة التي افترضها تشارلز دارون وجعلها شرطاً لصحة نظريته وراهن عليها لا وجود لها، بل هو التعقيد، وليس أيّ تعقيد، وإنما التعقيد المخصص غير القابل للاختزال، فسقطت إذن فكرة التطور.

الثابت الكونيّ والمعايير المنضبطة

لا فرصة في هذا الكون المذهل وهذه الحياة المدهشة للصدفة ولا للعشوائية ولا لأيّ احتمال سوى التصميم الذكيّ المعجز؛ لأسباب كثيرة تعرضنا لبعضها وستعرض للبعض الآخر، وجاءت المعايير المنضبطة الدقيقة التي تمثل في مجموعها ثابتاً كونياً غاية في الرسوخ والشموخ، فالكون موضوع على ميزان دقيق: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾، هذا الميزان الثابت المتمدد في الكون كله تُثبته القوانين المتناغمة، وتُثبته المعايير المنسجمة، وينشعب بهذه المعايير والقوانين إلى

(١) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط: أولى - ١٤٣٦هـ، ص ٢٥.

(٢) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط: أولى - ١٤٣٦هـ، ص ٣٠.

حزمة من الثوابت الكونية الصارمة، وإلى وقت قريب «اكتشف الفيزيائيون أكثر من ثلاثين من الثوابت الكونية أو الفيزيائية التي تتطلب معايرة دقيقة لكي تنتج كونا صالحا للحياة»^(١)، وما خفي كان أعظم، ﴿وَمَا أُوتِثُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وربما أطلق مصطلح «الثابت الكوني» وأريد به الرقم الذي يتحكم في سرعة اتساع الكون، ولكنه ليس الثابت الوحيد، وربما كان لدى كثير من العلماء الثابت الأكبر، وإن كنت أستشف من الأقوال العديدة للعديد من العلماء أنه أحد الثوابت الكبرى التي ترسخ الثابت الأم وهو الميزان العام الذي وضع عليه الكون، ويحاول «ديفيد بيرلنسكي» أن يقتبس من أقوال الفيزيائيين ما يدعم به الاعتقاد بوجود الثابت الكوني وما يترتب على وجوده من نتائج خطيرة، فيقول: «لاحظ الفيزيائي براندين كارتر في ورقة نشرت ١٩٧٤م بعنوان «المصادفات الرقمية الكبيرة والمبدأ البشري في الكونيات» أن العديد من الخصائص الفيزيائية للكون تبدو مضبوطة بدقة على نحو يتيح ظهور الأنظمة الحية... إن الثابت الكوني عبارة عن رقم يتحكم في اتساع الكون، لو كان سالبًا لبدأ الكون قد حكم عليه بالانقباض على نفسه، ولو كان موجبًا لبدأ - وعلى نحو مماثل - أنه محكومٌ عليه بالاتساع من داخله إلى خارجه... يبدو أن الكون محكوم عليه بغض النظر عما يفعله... لقد وقعت مشاهدات مشابهة تمامًا فيما يتعلق بثابت دقة البنية، ونسبة النيوترونات إلى البروتونات، وحتى سرعة الضوء؛ لم التوقف؟... يؤكد القانون الثاني للديناميكا الحرارية أن الأشياء تؤول إلى السكون... فلا شيء تفعل ذلك؟! هذا هو السؤال الذي أثاره الفيزيائي والرياضي روجر بنروز... العلماء - كما يقول بول ديفيز - يستيقظون ببطء على حقيقة غير

(١) العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة: رضا زيدان - مكتبة مؤمن قريش، مرجع سابق، ص ٧٠.

مريحة: يبدو الكون على نحو مريب وكأنه قد حُدِّدَ سلفاً... لماذا تخضع ثوابت وضوابط الفيزياء النظرية لقيود محكمة كهذه؟!... إنَّ قوانين الطبيعة هي على ما هي عليه، إنَّها أساسية، ولكن لماذا هي صحيحة؟!... إذا كانت قوانين الطبيعة ليست ضرورية ولا بسيطة فلماذا إذن هي صحيحة... لماذا الأشياء على ما هي عليه في حين أنها لا تبدو اعتباطية على الإطلاق... يبدو الكون وكأنه شيء دبر بليل لأنَّه قد دبر بليل فعلاً... لكنَّ كوناً يبدو كعمل مُبَيَّت من شأنه أن يُنْفَرَّ جمهور الفيزيائيين؛ لقد بذلوا قصارى جهدهم للعثور على خيار بديل؛ أتصورت العلمَ على أنَّه بحثٌ نزيه... حسناً؛ لقد كنت مخطئاً»^(١).

وقد تحدث «لي ستروبل» عن الثابت الكونيَّ بطريقة مختلفة، ونقل كلام بعض كبار العلماء عن أحد العوامل الفيزيائية الدقيقة التي تجعل الكون معدلاً لاستقبال الحياة، وهو عامل الثابت الكوني الذي هو كثافة طاقة الفضاء الفارغ، مفاد هذا الكلام الكثير والمعقد أنَّ هذا العامل المسمى الثابت الكونيَّ يُعَدُّ جزءاً من معادلة أينشتاين للنسبية العامة، هذا الثابت الكونيَّ منضبط لصالحنا، وهو صغير للغاية، وتبلغ دقة التعديل لهذا العامل نسبة ١ إلى ١٠ أمامها ٥٣ صفراً، فإذا أضيف لهذا العامل عامل الجاذبية سيصبح التعديل بدقة ١ إلى مائة مليون تريليون تريليون تريليون تريليون تريليون. أي رقم لا يمكن كتابته^(٢)، ويقول هو نفسه في موضع آخر: «لو تغيرت سرعة اتساع الكون إبطاءً أو إسرَاعاً بنسبة تزيد عن ١ من تريليون

(١) وهم الشيطان «الإلحاد ومزاعمه العلمية» - ديفيد بيرلنسكي - ترجمة: عبد الله الشهري - مركز دلائل - الرياض - ط: أولى - ١٤٣٧هـ، ص ١٤٩ - ١٥٢.

(٢) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ١٧١ - ١٧٢.

تريليون تريليون تريليون؛ لما كان هذا الكون قادرًا على منح حياة»^(١). وفي السياق ذاته نقل عن بعض العلماء قولهم: «الجاذبية مجرد معيار واحد درسه العلماء، فقد قال خبير: إنه يوجد أكثر من ثلاثين معيارًا فيزيائيًا أو كونيًا تتطلب كلها تدريبًا دقيقًا لإنتاج كون داعم للحياة»^(٢)، كما نقل عنهم ما معناه أن «القوة النووية التي تربط البروتونات والنيوترونات معًا أقوى من قوة الجاذبية بعشرة آلاف بليون بليون بليون مرة، وهذه النسبة أحد المعايير الكونية المنضبطة التي تجعل الكون مهينًا ومعدلاً للحياة، وهي ثابتة على هذا المستوى لا تتغير»^(٣)، كما نقل عن فيلسوف العلوم والفيزيائي البريطاني «روجر بنروز» من جامعة أكسفورد قوله: «إن معيارًا واحدًا وهو الفراغ الفضائي الأصلي استلزم تعديلًا لدقة مقدارها واحد من عشرة بلايين مضروبة في نفسها ١٢٣ مرة، وهذا الرقم سيتطلب أصفًا أكثر من عدد الجزيئات الأولية في الكون بأكمله»^(٤)، وعن مؤلف لخص ببراءة كلامًا لعالم الفلك الشهير مارتن ريز الذي منحه إليزابيث لقب الفلكي الملكي، قال: «لكي يوجد الكون يستلزم الأمر أن يتحول الهيدروجين إلى هليوم بطريقة

(١) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ٧٠.

(٣) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ٦٩.

(٤) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ٧٤.

دقيقة ولكن مدهشة، وذلك بأن يتحول ٧ من مائة بالمائة من كتلتها إلى طاقة، ولو زادت أو نقصت بمقدار ١ من مائة بالمائة لن يكون هناك كون»^(١).

ومن آثار الثابت الكونيّ ذلك التوازن بين القوى الأربع التي تحكم الكون: الجاذبية والكهرومغناطيسية والنوية الكبرى والنوية الصغرى، ذلك التوازن الدقيق للغاية، يقول عنه عالم الفيزياء البريطاني الأمريكي (فريمان دايسون): «إنّ القوة النووية الصغرى أصغر بمليون مرة من الكبرى، لكنّ مقدارها هو المقدار المناسب ليحترق الهيدوجين في الشمس ببطء وثبات، ولو أنّها أقوى أو أضعف لما أمكن قيام أيّ نوع من الحياة التي تعتمد على أشعة الشمس، أي لما وجدت حياة على الأرض».

ولعلّ مما ينشعب على الثابت الكونيّ ويدعمه كذلك ثبات القوانين في طول الكون وعرضه وعمقه، ولذلك قال (جون بولكينغهورن): «إذا كانت الحياة الكربونية ممكنة؛ فإنّ القوانين التي تعمل في الكون ستكون موضوعاً لجملة من المحددات»^(٢)، وقال: «كان عمر الكون مليارات السنوات قبل ظهور الحياة فيه، لكنه كان محمولاً بتلك الإمكانية من البداية»^(٣)، وأضاف موضعاً أثر الثابت الكونيّ وما يحرسه من قوانين على ذلك العنصر البالغ الأهمية: «عنصر الكربون

(١) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط ٢ - ٢٠١٣ م ص ٧٨.

(٢) المبدأ الإنساني وجدل العلم والدين - جون بولكينغهورن - مجلة الاستغراب خريف ٢٠١٨ م ص ٨٠.

(٣) المبدأ الإنساني وجدل العلم والدين - جون بولكينغهورن - مجلة الاستغراب، خريف ٢٠١٨ م، ص ٧٩.

الذي هو أصل الحياة ومعه سائر العناصر الكيميائية الضرورية لنشأة الحياة صُنعت في النجوم، الكربون ذلك العنصر المركزي البالغ الأهمية لنشوء الحياة صنع في قاع الأفران النووية بالنجوم، ولم يكن ثم وجود سوى لعنصرين لا يمكن أن تقوم الحياة بهما وهما الهيدروجين والهيليوم، وذلك لم يتم إلا عبر سلسلة من التفاعلات التي تحكمها توازنات دقيقة، مما دعا «هويلي» رائد هذه الاكتشافات في القرن الحادي والعشرين - وقد كان ملحدًا في بداية أمره - إلى القول بأنّ الكون «مؤامرة كبرى» ويستحيل أن يحدث هذا كله نتيجة صدفة أو حوادث عبثية^(١).

المعلومات المحتشدة والتوجيه المقصود

«محتوى المعلومات المرتفع يدل على وجود مصمم ذكي»^(٢)، هذه هي إحدى صيحات الثورة العلمية الجديدة التي ترفض بقوة خرافة التطور وخزعبلات الصدفة والضرورة، والعالم الفذّ «ستيفن ماير» وهو واحد من الثلاثة الذين اشتركت أنفاسهم في صياغة الصيحة الآنفة يقول: «البروتينات هي مفتاح الجزيئات العاملة في الخلية، ولا يمكن وجود حياة بدونها، فمن أين أتت هذه البروتينات؟ وهذا سؤال يفرض قضية أعمق: ما هو مصدر التعليمات المجمّعة في الحامض النوويّ DNA المسئولة عن الأحماض الأمينية ذات البعد الواحد والتي تخلق الأشكال ذات الأبعاد الثلاثة للبروتينات؟ ومعلومٌ أنّ الصفات العاملة في البروتينات

(١) المبدأ الإنساني وجدل العلم والدين - جون بولكينغهورن - مجلة الاستغراب، خريف ٢٠١٨م،

(٢) العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة: رضا زيدان،

مشتقة من المعلومات المخزونة في جزيء الحامض النووي DNA^(١).

أجل.. من أين أتت هذه التعليمات؟ ومن الذي رتبها على نحو معين؟ وهل يمكن أن تُشحن المعلومات على متن «هارد» متناه في الصغر وفي قدرته على حمل المعلومات والتعليمات الموجهة دون أن يكون وراء هذه العملية مصدر للمعلومات والتعليمات ويد تقوم ببرمجة ذلك الجهاز المعجز؟ أم إنهم سيقومون باستدعاء الألفاظ والتراكيب التي تشبه التعاويذ السحرية باسم البحث العلمي؟ إنَّ كم المعلومات وترتيبها قد أبهر العلماء، إلى حدٍّ أنَّ «علماء البيولوجيا الجزيئية - كفرنسيس كريك - سرعان ما شبهوا خصائص البروتين بالنصّ اللغوي^(٢)»، والتعبير هنا بالنصّ اللغويّ أشدَّ إبهارًا من التعبير بالشفرة؛ لأنَّ النصّ اللغويّ يشعر بالإفصاح عن المعنى وما وراء المعنى من مقصد وغائية.

هذه المعلومات المحتشدة، والتعليمات المتضامنة المتكافئة، إضافة إلى القوانين الصارمة التي تحكم الكون والحياة، مع تلك المعايير الدقيقة والموازن الخارقة التي تشكل ما يسمونه بالثابت الكونيّ، هذه العقلانية التي يتمتع بها الكون وتتمتع بها الحياة؛ دعت العلماء والمفكرين في الثورة العلمية الجديدة إلى الربط بين ما أطلقوا عليه عقلانية الكون وما أطلقوا عليه - وإن كان التعبير لا يرتقي - عقل الإله، نقل «أنطوني فلو» عن «جون ليسلي» قوله: «إذا كان هناك أمور في الطبيعة تحدث بطريقة تثير الإعجاب؛ فإنَّ هذه الأمور ستُرى بطريقة أفضل كأدلة لصالح الاعتقاد

(١) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م،

ص ٢٩٠.

(٢) العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة: رضا زيدان،

مرجع سابق، ص ٨٠.

بإله»، ثم ذكر أمثلة للقوانين التي تؤكد عقلانية الكون وغائية الخلق ودقة الإعجاز، مثل مبدأ النسبية الخاصة الذي يجعل للقوى تأثيراً غير متغير؛ مما يكون له أثره على استقرار عمل الجينات وترابط حركة دوران الكواكب وغير ذلك، وقوانين الكم التي تمكن الإلكترونات من التصاعد إلى الحالة الذرية^(١)، فمن الجينات المتناهية في الصغر والخفاء إلى الكواكب المتناهية في الضخامة والفخامة والظهور؛ الكل منضبط بقوانين، وراءها معايير وثوابت، ووراء ذلك كله معلومات.

أقوال منتشرة ومشتبهة

«لو لم يكن للكون تلك الخواص التي يتمتع بها؛ لما كنّا موجودين هنا لنراه ونحكم عليه»^(٢)، كلماتٌ للعالم الفيزيائي البريطاني «براندون كارتر»؛ أبدأ بها هذه الرحلة الممتعة وهذه التطوافة الرائعة، فهيّا بنا نتجول في بستان المؤلفات المختارة؛ لنغذي قلوبنا وعقولنا بقطوف متناثرة هنا وهناك كالورود المتفتحة والزهور اليانعة، إنّها - إلى جانب ما فيها من جمال باهر وروعة خلاقة - شهادات موثقة لعلماء موثوقين، جميعهم من الغرب، وأغلبهم من جيل الصحوة العلمية أو الثورة العلمية، التي حدثت مؤخراً، بدءاً من أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، ومروراً بسبعينيات وثمانينيات ذلك القرن المنصرم، وانتهاء بهذه العقود الثلاثة التي افتتحت القرن الحادي والعشرين، هذا الجيل شهد واستكشف من أسرار الكون - ولا سيما بعد النسبية وميكانيكا الكم - ما يجعله يقف متسائلاً تجاه النظريات القديمة

(١) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيته» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت، ط: أولى - ٢٠١٥م، ص ١٣٧.

(٢) حافة العلم (عبور الحدّ من الفيزيكا إلى الميتافيزيكا) - ريتشارد موريس - ترجمة: د. مصطفى ابراهيم فهمي - مرجع سابق، ص ٢٢.

البائسة المغرورة، وكان أعظم اكتشاف ذلك الذي قلب كلّ الموازين وصمد أمام كل محاولات الهرب، ألا وهو نظرية «الانفجار العظيم».

وقبل أن أبذل جهداً في التنسيق بين الأقوال وفي تصنيفها على نحو ما - ولا أدري هل أوفق في هذا أم لا - أحبّ ألا يتأخر الوقوف عند هذه الروعة المتجلية في كلمات عالم الأحياء والنبات البارز جداً «رسل تشارلز أرنست»، فانظر ماذا يقول: «إن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أنّ مجرد تجمع بعض الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلية الحية، وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة؛ فهذا شأنه وحده، ولكنه - إذ يفعل ذلك - فإنّما يسلم بأمر أشدّ إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق هذه الأشياء ودبرها»^(١)، وهذا العالم نفسه «تحدث عن البروتوبلازم الذي هو عبارة عن جسيمات صغيرة تسبح في السيتوبلازم، وأنّها مركز الحياة والحركة في كل كائن حيّ، وأنّ القوة التي تحرك هذه الجسيمات لم يصل العلم لتفسيرها إلى الآن»^(٢)؛ بما يعني أنّ العلم عاجز عن تفسير الحياة بعيداً عن التفسير الفطري الذي ينسبها إلى قدرة الله.

وإذا أردنا أن نصنف النقول التي نقلت عن العلماء أو القطوف التي أخذت من أقوالهم وكتاباتهم؛ فإنّ أول ما يبدو لنا من هذا التصنيف هو ذلك الصنف الأكثر

(١) الله يتجلى في عصر العلم - تأليف: نخبة من علماء أمريكا - تحرير: جون كلوفرمونسيما - ترجمة: د. الدمرداش سرحان - دار القلم - بيروت، ص ٨٣.

(٢) الله يتجلى في عصر العلم - تأليف: نخبة من علماء أمريكا - تحرير: جون كلوفرمونسيما - ترجمة: د. الدمرداش سرحان - دار القلم - بيروت، ص ٨٠.

شيوعاً، والذي يسخر من أكاذيب العلموية المعاصرة المغرورة، ومن وقوعها في جبّ الخرافة والأسطورة وهي تفسر الكون والحياة، فمن ذلك ما نقله «لي ستروبل» عن أحد العلماء الثائرين «جونثان ويلز» عالم الأحياء والبيولوجيا الخلوية الجزيئية، نقل عنه قوله عن نظرية دارون: «إنّ الأمر يتضح أكثر فأكثر بأنّ هذه فلسفة مادية تنكر في ثوب علم تجريبيّ»^(١)، ويقول «لي ستروبل» أيضاً: سألت «والتر برادلي» - وهو صاحب كتاب لغز نشأة الحياة - عن النظريات المختلفة التي قدمها العلماء، والخاصة بولادة أول خلية حية بطريقة طبيعية، بما فيها الفرصة العشوائية، والعلاقة الكيميائية، واتجاهات الطلب الذاتي، والبذر من الفضاء، ومتنفسات محيط البحر العميقة، واستخدام الطين لتشجيع تجميع المواد الكيميائية الحيوية، فقال: «إنّه ولا واحدة من هذه النظريات يمكنها مواجهة الفحص العلمي»^(٢)، وإذن فبحسب كلام هذين العالمين الكبيرين تعدّ النظريات التي تفسر خلق الكون والحياة بعيداً عن التصميم الذكيّ بأنّها مجرد فلسفة مادّية، وليس منها ما يصمد للفحص العلميّ.

وينقل صاحب كتاب «ليطمئن عقلي» عن «فريد هويل» في كتابه «الكون الذكيّ» قوله: «إنّ احتمالية تكون بروتين واحد عشوائياً يشبه تخيل مجموعة شمسية مليئة بعميان يجلسون جنباً إلى جنب بينما هم يحاولون حل لغز مكعب روبيك، وتوقع أنّهم سيتمكنون جميعاً من حلها في الوقت نفسه تحديداً»^(٣)، وينقل

(١) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ٥٢.

(٢) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ٥٣.

(٣) ليطمئن عقلي - أحمد خيرى العمري - دار عصير الكتب - ط: الأولى - ٢٠١٩م، ص ١٢١.

لنا «جونثان ويلز» عن العالم الألماني «كلاوس دوز» قوله عام ١٩٨٨ م عن نظرية التطور: «إنّ النظرية الحالية عبارة عن مخطط للجهل، وهو لا يقدم أية تبصرات جديدة حول العمليات التطورية، ومن المرجح أنّ هذا الجهل سيمكث»^(١)، وينقل «لي ستروبل» عن عالم الكيمياء الحيوية «فرانكلين إم هارولد» قوله: «يجب أن نرفض - ابتداءً - أن تحل الصدفة والضرورة محل التصميم، كما يجب أن نعترف بأنّه ليس هناك تفسيرات داروينية مفصلة لتطور أيّ نظام كيميائي حيوي؛ إن هي إلا تخمينات تواقّة»^(٢).

أمّا العالم الشهير العائد من الإلحاد إلى الإيمان «أنطوني فلو» فقد نقل عن «ريتشارد سوينبورن» قوله: «ولعله أكثر بساطة أن نقول: إنّ هذا التناغم مصدره كيان واحد جعل هذه الأجسام تسلك بهذه الطريقة بدلاً من افتراض أنّ كل الأجسام تتصرف بطريقة معينة بحكم حقيقة نهائية عمياء»^(٣)، كما نقل «روبرت جيمس غالغي» صاحب الكتاب الشهير «خرافة التطور» عن «روبرت جاسروا» البروفيسور بجامعة كولومبيا الأمريكية قوله: «إنّ البراهين الفلكية على وجود بداية للكون تضع العلماء في موقف حرج لا يحسدون عليه؛ ذلك أنّ العلماء هم من يعتقدون

(١) أيقونات التطور.. علم أم خرافة؟ - جونثان ويلز - ت موسى إدريس وزملائه - دار الكاتب - الإسماعيلية - مصر - ط: أولى - ٢٠١٤م، ص ٢٣.

(٢) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ٢٤٩.

(٣) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيّه» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت، ط: أولى - ٢٠١٥م، ص ١٢٩ - ١٣٠.

ويؤكدون دائماً أن لكل سبب مسبباً^(١)، غير أنهم بالطبع يتنكرون لمبدأ السببية إذا كان الحديث عن خلق الكون وإيجاد الحياة!

وينقل لنا المؤلف نفسه أحد العلماء البارزين قوله: «إنّ الإيمان بأنّ خالقاً حكيمًا أبدع الكون من العدم وسيره لبلوغ غاية واضحة وهدف محدد أمر يقبله العقل بسهولة، لكن الذي لا يقبله العقل هو الإيمان بأنّ كل ما يراه في هذا الكون ليس إلا تراكما لمجموعة لا نهائية من الصدف العمياء»^(٢)، وفي كتاب «العلم ودليل التصميم في الكون» كلام منقول عن الكاتب البريطاني كليفورد لونجلي - في التايمز عام ١٩٨٩م - مفاده: «إنّ استخدام فرضية الأكوان المتعددة لتجنب أطروحة التصميم الإلهي كثيراً ما تكون دفاعاً استثنائياً ويأساً ميتافيزيقياً... والإصرار على خلاف التصميم يشبه الإصرار على أنّ شكسبير لم يكتب أعماله؛ إذ ربما نتجت هذه الأعمال من قفز مليار من القروء على مليار لوحة مفاتيح لمدة مليار سنة!»^(٣)، وكلام آخر نُقِلَ عن «فريد هويل» قوله: «تفسير الحسّ العام للحقائق يقترح أنّ قوة خارقة سخرت من الفيزيائيين والكيميائيين والإحيائيين، وأنّ لا قوة عمياء في الطبيعة تستحق أن نتكلم عنها»^(٤).

(١) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط: أولى - ١٤٣٦هـ، ص ٩٢.

(٢) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط: أولى - ١٤٣٦هـ، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٣) العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة: رضا زيدان - مرجع سابق، ص ٧٥.

(٤) العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة: رضا زيدان - مرجع سابق، ص ٦٧.

وتمَّ صنف آخر من النقول أو القطوف يتجه إلى بيان دليل التصميم، ولكن بعبارات موجزة، تبدو عليها سمة الصرامة والحسم، من ذلك ما نقله مايكل بيهي وزميلاه عن إسحاق نيوتن من قوله: «على الرغم من أنَّ هذه الأجسام في الواقع تستمر في مداراتها تحت تأثير قوانين الجاذبية إلا أنَّه لا يمكنها بحال من الأحوال أن تستمد الوضع المنظم لمداراتها من تلك القوانين... ومن ثم فلا يمكن أن ينشأ هذا النظام البديع من الشمس والكواكب والمذنبات إلا عن توجيه وهيمنة مصمم فعال وذكي»^(١)، وما نقله «أنطوني فلو» عن عالم الرياضيات والفيزياء النظرية البريطاني الأمريكي «فريمن دايسون» قوله: «كلما قمت بفحص هذا الكون ودرست تفاصيل تكوينه؛ وجدت دليلاً إضافياً على أنَّ الكون يعرف أننا قادمون».

ويقول «أنطوني فلو»: «أشار (بول ديفيز) إلى نقطة، وهي أنَّ «العلم يمكن أن يتقدم فقط عندما يمتلك العلماء نظرة كونية لاهوتية»... ويقول: «من الهراء بكل ما في الكلمة من معنى افتراض أنَّ قوانين الفيزياء هي قوانيننا وليست قوانين الطبيعة»... القوانين كتبت بشفرة الكون بحيث أنَّ على العلماء التنقيب لفك رسالة الطبيعة رسالة الله وليست رسالتنا... السؤال الملح - كما يقول ديفيز - ينقسم إلى ثلاثة أقسام: من أين جاءت قوانين الطبيعة؟ لماذا لدينا هذه القوانين وليس حزمة أخرى من القوانين؟ كيف لنا أن نمتلك مجموعة من القوانين التي تحول غازات ساكنة إلى حياة ووعي وذكاء؟»^(٢).

(١) العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة: رضا زيدان - مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيته» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت ط: أولى - ٢٠١٥م، ص ١٢٦ وما بعدها.

ويقول أيضًا كلامًا يبدو عليه آثار الاغتراب برحلة العودة عن الإلحاد: «لعل أكثر الحجج الداعمة لوجود الإله شهرة وقبولاً من الناحية الحدسية ما تسمى بحجة التصميم؛ وفقا لهذه الحجة فإنّ التصميم الواضع في الطبيعة يدل على وجود مصمم للكون، كثيرا ما أكدت أنّ الحجة الغائية تنبثق في الواقع من حجة النظام... ومن خلال التصميم نتعرف على المصمم... التطورات التي حدثت في مجالين بالخصوص جعلتني أغير وجهة نظري، الأول: هو السؤال عن أصل قوانين الطبيعة... أما المجال الثاني فهو السؤال عن أصل الحياة والتكاثر»^(١).

وينقل «لي ستروبل» عن عالم الفيزياء الحاصل على جائزة نوبل لاكتشافه إشعاع الخلفية الكونية الميكروني الداعم لنظرية الانفجار العظيم (آرنو ألان بنزياس) قوله: «إنّ الفلك يقودنا إلى حدث فريد من نوعه، إلى كون خلق من العدم، كون يتمتع بأقصى توازن دقيق مطلوب لتوفير الشروط التي تسمح بوجود حياة، كون له خطة كامنة فيه، أو كما يقال: خطة فائقة للطبيعة»^(٢)، وهذا كلام بارع من عالم بارع.

كما ينقل عن العالم والفيلسوف الأمريكي الثائر على الإلحاد والداعم بقوة لنظرية التصميم الذكي «ستيفن ماير» قوله: «ضبط قوانين الطبيعة والأشكال الدقيقة لحالاته المبدئية والتي ترجع في تاريخها إلى أصل الكون نفسه؛ كل هذا يوحي

(١) هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيته» - أنتوني فلو - ترجمة: د. صلاح الفضلي - الكويت ط: أولى - ٢٠١٥م، ص ١١٥.

(٢) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ١٩٧.

بالحاجة إلى علة تتَّسَّم بالذكاء»^(١)، وبطريقة إنشائية جذابة يناقش «بول ديفيز» القضية على هذا النحو المثير: «لن يوجد علم الكون كموضوع ما لم يكن هناك كون يقوم بشرحه... تبدو قوانين الفيزياء واحدة إلى أبعد مكان في الفضاء... لماذا وجب أن ترتب الأشياء بهذا الشكل المنظم؟»^(٢)، إنَّه إذن التوجيه المقصود والتصميم المعجز؛ فسبحان من نطق بعظمته العقلاء.

ولأنَّ دارون يُعدُّ من أكبر مؤسسي فتنة الإلحاد المعاصر - إن لم يكن أكبرهم جميعاً على الإطلاق وإمامهم - وجدنا العلماء يولون نظريته الخرقاء الخرفة كثيراً من النقد والتفنيد، لذلك أحيينا أن نختم بها هذه الجولة، ونبدأ بقول دارون نفسه في كتابه أصل الأنواع: «إذا تمَّ التوصل إلى وجود كائن أوليٍّ دقيق ومعقد، بما لا يمكن أن يقال إنَّه قد تشكل عبر تعديلات عديدة ومتتالية وطفيفة؛ فإنَّ نظريتي تسقط بكل تأكيد»^(٣)، والحمد لله فقد خسر الرهان وتمَّ إسقاط أكذوبته الأسطورية الخرافية.

وعندما أجريت تجربة «ميلر» الشهيرة، والتي حاول فيها ميلر دعم نظرية دارون؛ صفق لها كثيرون في البداية، ولكن سرعان ما كشفت ثغراتها؛ فهاج الوسط العلميَّ ضدها، يقول «جونثان ويلز»: «فرغم اختلاف الجيوكيميائيين حول قضية وجود الأكسجين قديماً، لكنَّهم سرعان ما أجمعوا تقريباً على أنَّ الجو الأولي للأرض كان

(١) القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ١٠٤.

(٢) الجائزة الكونية الكبرى «لماذا الكون مناسب للحياة» - بول ديفيز - ترجمة: د. سعد الدين خرفان - وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م، ص ٣٤.

(٣) نقلاً عن كتاب: القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة: سليم اسكندر وحنا يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣م، ص ٢٥٤.

مختلفاً تماماً عن الجو الذي صنعه ميلر في تجربته»^(١)، ثم استطرد قائلاً ومفصلاً ما أجمله: «استنتج العالمان (هولند وأييلسون) في الستينات أي بعد تجربة ميلر بعقد كامل أنّ من الصعب أن يوجد في الجو آنذاك الأمونيا والميثان كمكونين أساسيين للجو الأولي للأرض الذي تفترضه نظرية التطور وتجربة ميلر، مما يؤدي إلى فشل الأيقونة الأولى للتطور الدارويني، كما أعلن البيوكيميائي البلجيكي مارسيل فلوركين عام ٧٥ أنّ مفهوم الجو الأولي المختزل قد سقط»^(٢).

ونترك ما تبقى للمتخصص في نقد خرافة دارون «روبرت جيمس غالغي»؛ فمن حقه أن يصحبنا في ختام هذه الرحلة؛ لكنه طاف من قبل على العديد من مؤلفات العلماء المتخصصين واقتبس من دررها الكثير، يقول في البداية: «سجل الأحافير لا يدعم نظرية التطور، فهل وجد في هذا السجل أحفورا لحيوان متوسط بين السمكة مثلاً والضفدعة؟ يقول (فرنسيس هيتشنغ): «يظهر السمك في سجل الأحافير فجأة مخلوقاً مائياً كاملاً بلا سلف، وكأنه جاء من المجهول»^(٣)، ثم استطرد في حديثه عن أزمة الأحافير وإخفاؤها في دعم نظرية دارون، فتحدث عن سعة الهوة بين الأسماك والبرمائيات، ثم عن سعة الهوة بين البرمائيات والزواحف؛ مما يقتضي افتراض وجود مرحلة وسيطة؛ فأين الحفريات التي تثبت وجود حيوان وسيط في أي من

(١) أيقونات التطور.. علم أم خرافة؟ - جونثان ويلز - ت موسى إدريس وزملائه - دار الكاتب -

الإسماعيلية - مصر - ط: أولى - ٢٠١٤م، ص ١٩.

(٢) أيقونات التطور.. علم أم خرافة؟ - جونثان ويلز - ت موسى إدريس وزملائه - دار الكاتب -

الإسماعيلية - مصر - ط: أولى - ٢٠١٤م، ص ٢٠.

(٣) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية -

ط: أولى - ١٤٣٦هـ، ص ٣٠.

هاتيك المرحلتين الانتقاليتين الكبيرتين؟! لا يوجد؛ مما يمثل ثغرة كبيرة وخطيرة في نظرية التطور^(١).

ويستمر في تعرية النظرية المزعومة باستخدام أزمة الأحافير، فينقل عن «هيربرت نيلسون»: «إنَّ الحقائق التي توفرها لنا الأحافير لا تتيح لنا أن نرسم ولو رسمًا كاريكاتوريًا عن التطور؛ فقد اكتملت مواد الأحافير لدرجة لا يمكن معها تبرير عدم وجود الكائنات الانتقالية بنقص الأحافير، إنَّ الفجوات حقيقية وواضحة ولا يمكن سدها»^(٢)، وعن «هارولد كوفن» الأمريكي قوله: «إنَّه بالنسبة للعلماء العلمانيين؛ فإنَّ الأحافير - وهي أدلة الحياة السابقة - تمثل بلا شك الحكم النهائي والأخير في قضيتهم، لأنَّ سجل الأحافير هو تاريخ الحياة الموثق بالنسبة للعلماء، وإذا كان تاريخ الأحافير لا يتوافق مع نظرية التطور؛ فماذا نستنتج من ذلك؟ لا يسعنا إلا أن نستنتج أنَّ النباتات والحيوانات خلقت في شكلها الأصليِّ فالحقائق المجردة للأحافير تدعم نظرية الخلق وليس التطور»^(٣).

هذه النقول التي نقلناها عن جمع غفير من العلماء عبر العديد من مشاهير المؤلفين في كتب مشهورة منشورة، تكشف عن وجود ثورة علمية جديدة وعاصفة في الأوساط العلمية الغربية، وتدل على أنَّ تهافت الإلحاد حقيقة واقعة في الميادين

(١) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط: أولى - ١٤٣٦هـ، ص ٣١ - ٣٣.

(٢) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط: أولى - ١٤٣٦هـ، ص ٧١.

(٣) خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة: فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية - ط: أولى - ١٤٣٦هـ، ص ٧٧.

الأكاديمية الممثلة للحضارة المعاصرة، وعلى أن هذا التهافت ليس فقط بسقوط النظريات الإلحادية من جهة الدليل والبرهنة، وإنّما كذلك من جهة الرواج العلمي والاستقرار الأكاديمي، ومن ثمّ يجدر طرح السؤال الآتي: إذا كان الأمر كذلك فلم هذا الهوج الذي نراه في أوساط بعض شباب الأمة؟ وما الغرض من حفاوة بعض وسائل الإعلام وبعض المثقفين بهؤلاء الشباب؟! إنّ القضية اليوم لم تعد علمية قط، وإنّما هي قضية نفسية وسياسية، قضية نفسية من جهة شباب يلتمسون طريقاً للخروج من العدمية التي يحيونها، ويبحثون عن ذواتهم في أدغال مجهولة، وقضية سياسية يحاول الطغاة من خلالها وباستعمال أدوات متمثلة في كيانات بشرية متسلقة متطفلة؛ بغرض الإلهاء والإفناء، الإلهاء للجيل، والإفناء لكل ما يمت إلى قضيتهم بصلة، من أجل أن يستقر لهم حكمهم ويسلم من التهديد.

إنّ قضية هذا الجيل ليست قابضة في زاوية الإلهيات، ولا ثاوية في ركن العقائد والتصورات، ولا متمثلة في معضلة تضطرنّا لأنّ نسأل: هل الله موجود أم ليس موجوداً؟ إنّ قضيتنا هذا الجيل في مكان آخر، وإنّ معضلته تتمثل في كيفية الخلاص من القهر والتحرر من الاستبداد، الخلاص والتحرر، ليس فقط من استبداد الأنظمة الوظيفية العميلة، وإنّما قبل ذلك من استبداد النظام الرأسماليّ الإمبرياليّ العالميّ، إنّ قضية هذا الجيل هي كيف ينصر الله على هذا النظام الذي يحارب الله والذي نشر الإلحاد والشذوذ في أرض الله؟ فيا ليت الذين يهرولون إلى الهاوية يعقلون ويتّحدون ويتريثون؛ ليروا ما وراء الأكمة أولاً، إنّها المؤامرة على الحقّ.





الفصل الرابع

الإيمان بالغيب وشبهات الملحدين

ما لا يدركه كثير من أهل الإيمان - بل ربما كثير ممن يُدرّسون مسائل الإيمان - أن قضايا الإيمان لها ترتيب، وليست متروكة هكذا بلا منهجية في ترتيبها وبناء بعضها على بعض، وإدراك هذا الترتيب مفيد في تمتين البرهان وتقوية الاستدلال، وفي تحصين العقول والقلوب من التشتت والتمزق، واختزال العملية العقلية في خطوات بسيطة ومباشرة وموصلة للحقيقة من أخصر الطرق وأسلسها وأكثرها أماناً؛ وتكمن الحكمة في هذا الترتيب الربّانيّ في أنّ العقل الإنسانيّ له طاقة محدودة وله وظيفة محددة، فإذا ترك هذا العقل ليسبح في فضاء الجدل السوفسطائيّ؛ فسوف يترتب على تجديفه في صحراء هذا الفضاء أمران غاية في الخطورة، الأول: التبديد فيما لا يجدي ولا يفيد، للطاقة العقلية المحدودة التي يجب أن تصان وأن تسخر في أدوار عظيمة لها تعلق بوظيفة الإنسان في هذه الحياة، الثاني: ضياع الوظيفة المحددة التي خلق الإنسان من أجلها وأسكن الأرض لأجلها، وهي العبادة وما يتفرع عن العبادة من وظائف الاستخلاف في الأرض.

والواقع أنّه لا وجود في قرآن ولا سنة لترتيب صريح، لا وجود في شيء من الوحيين لترتيب مُصَرَّح به، ولكن يوجد فيهما - ولا سيما القرآن - ما نستطيع أن نرتب في ضوئه قضايا الإيمان، على النحو الذي يعصم من الزلل، ويجبر ما قد يقع من الخلل، ونستطيع بسهولة أن ندرك ذلك من خلال معيارين، معيار الكثرة

والوفرة، ومعيار الأصالة والإحالة، بمعنى أنّ القضايا التي أكثر القرآن من إيرادها والتدليل عليها تُعدُّ أصولاً للاعتقاد يجب أن تُقدَّم على غيرها، ويُبنى عليها كثير مما يقع في دائرتها، وأنّ القضايا التي يدلُّ عليها القرآن بأدلة علمية منهجية ولا يكتفي فيها بمجرد الإخبار يجب أن تكون قاعدة وجذرا لما سوف يُبنى عليها ويتفرع عنها، فكثرة الأدلة ووفرة البراهين على قضية من قضايا الإيمان في كتاب الله يُعدُّ تقديمًا لها وتجديرًا لدورها، وكذلك الأصالة مقدمة على الإحالة، فقد عهدنا على القرآن أنّه يؤصل لقضايا معينة بالاستدلال والبرهنة، ثم يحيل عليها غيرها من القضايا لئلا يتوقف الإيمان بها على برهنة.

ونستطيع أن نقول - ودليلنا على ذلك الاستقراء التام لآيات الكتاب العزيز - أنّ الإيمان بالله تعالى وبربوبيته وألوهيته ووحدانيته وكمالته، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالوحي والرسالة وبأنّ محمدًا ﷺ مرسلٌ من عند الله بشريعة عالمية، وأنّ القرآن كلام الله ووحيه، نستطيع أن نقول - ونحن مطمئنين - أنّ هذه القضايا هي أمهات قضايا الإيمان، ومعها قضايا مفصلية محورية تقع بين الاعتقاد والعمل، تتعلق بالإجابة على الأسئلة الكبرى الفطرية، كسؤال الغاية من خلق الإنسان، وتتعلق كذلك بترتيب المسؤولية على الإنسان، فالدين والشرع ضرورة، والإنسان لم يخلق عبثًا ولم يرك في هذه الحياة سدى، وهكذا..

هذه القضايا يبنى عليها بنيان من الإيمان ضخّم، ثم يقام عليها الدين كله عقيدة وشريعة ومنهجًا وسلوكًا، وبناء على ذلك تجد أنّ استدلال القرآن عليها بالأدلة العقلية كثير ووفير، فما أكثر الآيات القرآنية التي تسبح بالعقل الإنساني في الآفاق والأنفس؛ على متن المنهج التجريبيّ القائم على أدوات الإدراك «السمع

والبصر والفؤاد»، ما أكثرها وأغزرها! وما أقواها في استدلالها على ربوبية الله وفي ترتيب الألوهية عليها! وكذلك ما أكثر الآيات القرآنية التي تستدل على الوحدانية بالأدلة القياسية والاستقرائية! وما أحكم الاستدلال على اليوم الآخر في القرآن! ذلك الاستدلال الذي تم بأدلة قياسية واستقرائية وتجريبية وغيرها، من خلال إثبات حقيقتين متكاملتين لا تتم البرهنة على القضية إلا باجتماعهما، وهما: إمكان البعث والقيامة، وضرورة البعث والقيامة؛ لتكون النتيجة هي: حتمية البعث والقيامة، وهكذا..

فإذا ثبت بالبرهنة الصحيحة السليمة قضايا الربوبية والألوهية والوحدانية والكمال المطلق لله تعالى؛ فلا حاجة للاستدلال على كل صفة من صفات الله، ويكفي في ذلك التلقي عن الوحي، ومن باب أولى لا حاجة للبحث فيما لا مدخل للبحث فيه، كالبحث في ذات الله وغير ذلك مما يتعلق بالذات الإلهية مما احتفظ الحق تبارك وتعالى بعلمه لنفسه، وإذا ثبتت بالبرهنة صفات القدرة المطلقة والإرادة النافذة والحكمة والهيمنة؛ فلا حاجة للبرهنة على القضاء والقدر، ويكفي في ذلك التلقي من القرآن والسنة، ومن باب أولى لا حاجة للذهاب فيما وراء ما أخبرنا به الله ورسوله من هذا الأمر إلى أسرار القدر، وهكذا..

عقلانية الإيمان بالغيب

مما سبق يتبين لنا أن الإيمان بالغيب - بلا خوض في تفاصيله ولا ذهاب بالعقل الإنساني إلى مناطق مجهولة في أعماقه - أمرٌ عقلائي في نهاية المطاف، لذلك - ولما سيأتي ذكره - كان الإيمان بالغيب صفة جوهرية في أهل الإيمان، لأنها من جهة تُعدُّ استسلامًا لله، الذي آمنوا به عن قناعة عقلية وبرهنة صحيحة وسليمة،

ومن جهة أخرى تُعدُّ استقامة على الجادة؛ إذ تُهيئ الإنسان للانطلاق في وظيفتي العبادة والخلافة، وقد جاءت هذه الصفة متصدرة في مستهل القرآن، فإذا ما جاوز القارئ فاتحة الكتاب ليشرع في سورة البقرة واجهته في مفتتح السورة وفي مستهل الكتاب العزيز مجموعة متسقة من صفات المؤمنين، تَسَنَّمُهَا هذه الصفة الفذة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، فالمؤمنون الصادقون يتمتعون بجملة من الصفات أهمها الإيمان بالغيب: و«الْغَيْبُ كُلُّ مَا أُمِّرْتَ بِالْإِيمَانِ بِهِ مِمَّا غَابَ عَنْ بَصْرِكَ»^(١)، فأنت تؤمن به عن سماعك لخبر الوحي إيماناً بظهور الغيب، فهو إيمان بالغيب لأنَّ ما تؤمن به غائب عن حواسك وتجاربك ومشاهدتك، وهو كذلك إيمان بالغيب لأنَّ إيمانك بما تؤمن به يكون عن ظهر الغيب^(٢).

هذه الصفة الراقية تُعدُّ - إلى جانب كونها عقيدة - قيمةً من القيم العليا، قيمةً إسلامية وقيمة إنسانية وقيمة حضارية، قيمة إسلامية لأنَّ الإسلام هو الذي قررها وأرساها، الإسلام الذي هو دين كل الأنبياء من لدن آدم أبي البشر إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين - فما من دين جاء به نبي ولا رسالة بلغها رسول إلا وقد اشتملت على جملة من الأخبار الغيبية التي يجب أن يؤمن بها العباد وأن يسلموا بصدق الخبر عنها، وجميعها غائبة عن الحس والمشاهدة والتجربة والملاحظة.

فالله تعالى غيب لا نراه ولا ندركه بالحواس، وجميع ما أخبر الله تعالى عنه من صفاته وأفعاله وأسمائه غيب كذلك، والدار الآخرة بكافة منازلها وجميع ما فيها من حساب وعقاب، ونعيم وعذاب، وجنة ونار وميزان وصراط، وغير ذلك

(١) تفسير السمعاني ٤٣/١ نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) تفسير الزمخشري ٣٨/١.

من الغيب الذي لا سبيل للعلم به إلا من السماع عن الوحي المعصوم، وكذلك الملائكة والقدر وأخبار المرسلين والوحي والروح وغير ذلك، ومن هنا سميت بالمسائل الخبرية أو السمعية، فالواجب على المؤمنين الإيمان بها والتسليم الكامل بصدق الخبر عنها، وليس من الإيمان إنظارها لحين إجراء التجارب عليها أو لحين إخضاعها للمنهج التجريبي بأي آلية من آلياته الاستدلالية؛ لأنها مسائل غيبية وليست مما يقع تحت الحس والمشاهدة.

وهذا لا يعني أنها مُنبَتَّة عن العقل أو عن المنهج العلمي في المعرفة والاستدلال، ولا حتى عن الكون المحسوس المشاهد، فالعقل يقضي في النهاية بضرورة الإيمان بها؛ لأنَّ الكون وما فيه من مشاهد متكررة متوافرة يقود إلى الإيمان بخالق مدبر حكيم عليم قدير مريد، متصل بالكون وما يضمنه من خلائق، ولا سبيل إلى معرفة كل شيء عن هذا الإله إلا من خلال خبر يأتي عنه، فإذا قادنا العقل من خلال النظر في هذا الكون، ومن خلال البرهنة العقلية السليمة إلى الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه؛ فقد وصل بنا إلى المنبع الذي لا سبيل إلى عدم الوثوق به، ولا مناص من الوقوف عند ما أوقفنا عنده.

وقد تتفق نظرية المعرفة في الإسلام مع الأستمولوجيا الحديثة في جزئية متعلقة بالميثافيزيقا، وهي عدم جدوى إقحام العقل في تلك المساحات الغيبية المجهولة، وانعدام فائدة الرضوخ للمنهج الأرسططاليسي الذي اعتمد طرقاً للاستدلال تخوض بالعقل مغامرات حمقاء في مجاهل الغيب وظلمات ما وراء الطبيعة، فقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك الخوض البائس الذي يبذل الطاقة الذهنية ويشغل العباد عن دورهم في الحياة ويملاً قلوبهم شكاً وارتياباً وقلقاً، ويحرمهم برد اليقين، من ذلك نهيه عن الخوض في القدر، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن

جده، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفتأ في وجهه، حب الرمان من الغضب، فقال: «بهذا أمرتم؟! أو لهذا خلقتم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض؟! بهذا هلك الأمم قبلكم»^(١)، فالإنسان لم يخلق لهذا ولم يؤمر به، فهذا - إذا - ضلالٌ أهلك الأمم السابقة وتركها حيرى في دينها بائسة ومفلسة في دنياها.

لكن الإسلام - إذ أبى على العقل هذا الخوض الأخرق وهذه المغامرات الحمقاء - لم يتركه تجاه الأمور الغيبية التي لها على وجدانه هيمنة وسلطان، ولها بفطرته اتصال عميق وارتباط وثيق، ولها في دنياه وما بعدها من دور يسكنها وأطوار يسلكها أثر بالغ وخطير؛ لم يتركه حائرًا تائهاً ضالًّا، وإنما أرشده إلى الطريق الآمن للمعرفة المتعلقة بالغيب كله، وهو التسليم لخبر الوحي، بعد التأكد بطريق العقل من أنه وحيٌ حقٌّ وصدقًا، وإنَّ العقل الذي يقودنا عن طريق النظر في الكون إلى الإيمان بالله تعالى هو ذاته الذي يقودنا بالنظر في حال النبيّ، وفي مضمون رسالته، ومدى استعصاء هذا المضمون على وصم الافتراء، وفيما أيده الله به من معجزات؛ يقودنا إلى الإيمان بكلمة الله، فإذا آمنّا بها وجب التسليم لمضامينها، والتسليم يكون للخبر وللأمر، يكون للخبر بالتصديق وللأمر بالانقياد.

لا سبيل في الغيبيات سوى الردّ إلى الوحي

كيف يمكن للعقل الإنسانيّ المحدود أن يخوض فيما وراء هذا الكون؟! ليس من العقل أن نرج بالعقل في بحر لجيٍّ شديد الاتساع لا يتناهى، بعيد الأعماق لا يُسبَر غورُهُ، غارق في الظلمة يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب؛ فإنَّ العقل

(١) مسند أحمد ط الرسالة (١١ / ٢٥٠) برقم (٦٦٦٨) - سنن ابن ماجه (١ / ٣٣) برقم (٨٥).

لم يخلق لهذا، وإنما خُلِقَ ليسبح راشداً في فلكه تحت قُبّة هذا الكون كما تسبح سائر الأجرام، ولئن كان فلكه أوسع ومداره أرحب؛ فإنّه مع ذلك محدود بحدود هذا الكون لا يتعداه، وهذا أمر فطريّ طبيعيّ؛ وقد سلّم بهذا فحول الفلاسفة المعاصرين من لدن يكون الذي أقام المنهج التجريبيّ على أنقاض المنطق الأرسطي والفلسفة الإغريقية الغارقة فيما لا جدوى منه.

وقد شهد «إيمانويل كانط» في كتابه «نقد العقل الخالص» بأنّ قدرات الإنسان العقلية محدودة؛ فلا يمكن لمجهوداتنا الذهنية الخوض في أمور لا قبل لها بها، مثل معرفة الله، يقول كانط: «ومشكلات العقل المحض هذه التي لا مفر منها هي: الله والحرية والخلود، أمّا العلم الذي ليس له هدف سوى حل تلك المشكلات فهو الميتافيزيقا، ومنهجه في النهاية دوغمائي، بمعنى أنّه يحاول بثقة تحقيق الهدف دون أن يتفحص مسبقاً قدرة العقل أو عجزه أمام مشروع ضخم كهذا»^(١)، فهو - وإن لم يسلم بمناهج الميتافيزيقيين جملة - قرر أنّ العقل غير قادر على ولوج هذه الفيافي المجهولة والأدغال الموحشة.

وبرغم تأسيسه للإلحاد يقرر «ديفيد هيوم» أنّ على العقل الإنسانيّ أن يتواضع؛ فيقول: «لكن يؤخذ على غموض الفلسفة التجريدية المتعمقة أنّه ليس مزعجاً ومتعباً وحسب، بل هو أيضاً منبعٌ للحيرة والغلط لا مهرب منه، وبالفعل هنا يكمن أصوب مأخذ على قسم واسع من الميتافيزيقا، وأكثره قبولاً هو أنها ليست من العلم بصحيح معناه في شيء، بل هي وليدة عقم جهود الغرور البشريّ الذي يريد الدخول

(١) نقد العقل المحض - إيمانويل كانط - ترجمة: موسى وهبة - مركز الإنماء القومي - بيروت - لبنان - بدون ط ت، ص ٤٧.

في موضوعات لا يمكن للفاهمة البشرية أن تطالعها البتة»^(١)، إلا أن هيوم يستنكر هذا في سياق الإنكار للميتافيزيقا، فهو محقٌ في استنكاره على الفلسفة الإغريقية خوضها في الميتافيزيقا، لكنه غير محق في رفضه وإنكاره لكل ما وراء الكون، وما أخطأ فيه لا يمنعنا من الاستفادة بما أصاب فيه.

ومن قَبْلُ رأينا «فرنسيس بيكون» يحمل حملته على الذين يريدون أن يقفزوا وراء الطبيعة بجدلهم الكلامي، فها هو يهش على العقل ليدخل حقله الطبيعي: «هيات لمبادئ تم استخلاصها بالجدل أن تعين أحدًا في كشف نتائج جديدة، لأنَّ الطبيعة أدق وأحذق من الجدل أضعافًا مضاعفة»^(٢)، وقد نقلت الموسوعة الفلسفية المختصرة عن «بيكون» أنه انتقد الفريق الموغل في الميتافيزيقا بعقله القاصر؛ فتقول: «يرى بيكون أنَّ الفلاسفة العقليين «كالعناكب؛ ينسجون الأفكار من تجاويف عقولهم» لكنَّ الموسوعة انتقدت أيضًا الفريق الجامد عند التجربة الحسية القريبة؛ فأكملت: «على أنَّ التجريبيين الغلاظ ليسوا بأفضل من هؤلاء؛ لأنَّهم كالنمل يجمعون المواد دونما هدف، أمَّا النحل فهو يقدم لنا النموذج الصحيح لخطة السير العملية»^(٣)، ولعل شيخ الإسلام ابن تيمية كان سابقًا لجميع هؤلاء الفلاسفة في الكشف عن هذه الحقائق، في: الرد على المنطقيين، ودرء التعارض، والفتاوى^(٤).

(١) مبحث في الفاهمة البشرية - ديفيد هيوم - ترجمة: موسى وهبة - دار الفارابي - بيروت - ط: أولى - ٢٠٠٨م، ص ٢٩.

(٢) الأورجانون الجديد - فرانسيس بيكون - ترجمة: د. عادل مصطفى - رؤية للنشر والتوزيع - القاهرة - ط: أولى - ٢٠١٣م، ص ٢٣.

(٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة - جوناثان ري وج - ت: فؤاد كامل وزميله - المركز القومي للترجمة - القاهرة - ط: ٢٠١٣م، ص ١٠٩.

(٤) ر: على سبيل المثال: درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣١٩) - مجموع الفتاوى ١٥٩/١٩.

فما هو - إذن - السبيل القويم لمعرفة ما وراء هذا الكون من الغيب الذي يجب علينا معرفته والإيمان به؟ إنه سبيل واحد لا سبيل غيره، إنه الوحي الإلهي؛ فبغير الوحي تظل كل هذه المناطق معتمة، ويظل الخلق حيالها عمياناً لا يبصرون، كما قال مراد هوفمان: «لولا الوحي لظللنا عمياناً»^(١)؛ ومن هنا فإنّ الخطة العلمية أو المنهجية العلمية الموصلة لهذه المعرفة تقوم على أساس أنّ العقل يهدينا للإيمان بالوحي واليقين بصدق ما يخبر به، ثم يتولى الوحي تفصيل الغيب، وهذا طريق عقليّ بلا ريب.

وقد أشار فيلسوف العلوم «كارل بوبر» إلى هذه المعادلة - وإن كان يقصد بها ميداناً آخر غير الماوراء - فقال: «إنّ الإدراك الحسي هو معرفة مباشرة نستطيع بواسطتها تبرير معرفتنا غير المباشرة»^(٢)، فالمعرفة المباشرة التي ندركها بالحس والمشاهدة والاستدلال تؤهلنا لمعرفة ربوبية الله للخلق وصدق الرسالة وصحة الوحي، ثم من خلال الوحي نستطيع معرفة السمعيات والشرعيات، لذلك نجد القرآن الكريم يبرهن على ربوبية الله وألوهيته وعلى صدق الرسالة والوحي، على النحو الذي سبق بيان بعضه، ثم يدعو في مجال ما وراء الكون المحسوس وفي مجال الأحكام الشرعية إلى التسليم للوحي؛ لأنّ إدراك ما وراء الكون ليس في مقدور العقل الإنسانيّ، ولأنّ تشريع الأحكام ليس من اختصاصه ولا من صلاحياته، فالعقل ميدانه فيما قبل هذين الأمرين وما بعدهما، فيما قبلهما بالسعي

(١) يوميات ألماني مسلم - مراد هوفمان - ت. د. عباس رشدي - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ط: أولى - ١٩٩٣ م، ص ٤٧.

(٢) منطق البحث العلمي - كارل بوبر - ترجمة: د. محمد البغدادي - مركز دراسات الوحدة العربية - ط: ١٠ - ١٩٩٤ م، ص ١٢٤.

عن طريق البحث والنظر للإيمان بالله ورسوله وكتابه، وفيما بعدهما بحسن التلقي للخبر والأمر؛ ليتحقق إيمان العبد وإسلامه بالتصديق للخبر والتسليم للأمر.

هذا في ميدان الإلهيات والشرعيات، أمّا في مجالات الدنيا فالكون كله ميدان العقل، والطبيعة كلها حقله الذي يحرثه ويزرع فيه؛ من أجل ذلك فرّق الرسول ﷺ تفريقاً حاسماً بين مساحتين، الأولى: دين يشتمل على خبر حقه التصديق وأمر حقه التسليم، والثاني: دنيا وكون وطبيعة وحياة حقه البحث والنظر والإبداع وتراكم الخبرات، فأما الأولى فهي إلى الوحي، وأمّا الثانية فهي إلى العقل البشري والتجربة الإنسانية، عن أنس قال: سمع رسول الله ﷺ أصواتاً فقال: «ما هذا؟» قالوا: يلحقون النخل، فقال: «لو تركوه فلم يلحقوه لصلح» فتركوه فلم يلحقوه، فخرج شيصاً، فقال النبي ﷺ: «ما لكم؟»، قالوا: تركوه لما قلت، فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم به، فإذا كان من أمر دينكم فإليّ»^(١)، وهذه الأحاديث صحيحة وثابتة، ينضم إليها أحاديث أخرى في مجالات مختلفة؛ ليتحقق التواتر المعنوي لحقيقة مفادها أنّ الأمور الدنيوية متروكة للإنسان.

فليس من العقل ولا من الرشd أن نبحث بعقولنا في غيبات ضمنّ الوحي بها علينا لأسباب تتعلق بالمشيئة والحكمة الإلهية، ولا عن تكييف غيبات أخرى أخبرنا بها الوحي على سبيل الإجمال، وإنّما العقل كلّ العقل والرشd كل الرشd أن نقف في ذلك كله على خبر الوحي المعصوم بشقيه: القرآن والسنة الصحيحة التي تلقتها الأمة بالتصحيح والقبول، وقد رأينا مالكا إمام المدينة وإمام السنة كيف كان موقفه من السائل الذي أراد منه أن يفتت على الغيب؛ سائلاً: كيف استوى الرحمن على

(١) مسند أحمد ط الرسالة مسند أنس بن مالك (١٩ / ٢٠) برقم (١٢٥٤٤).

عرشه؟ وكيف جاءت إجابته فاصلة: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»^(١).

وفي هذا السياق تأتي أحاديث كثيرة تحذر من الخوض بالعقل فيما وكل في ديننا إلى الوحي وحده، كتفاصيل القضاء والقدر، ومسائل الخير والشر، وتفاصيل اليوم الآخر، مما يطيب تسميته بالغيبيات أو بالسمعيات؛ لكونه من الغيب الذي لا طريق لمعرفته إلا السمع والنقل الصحيح، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيُقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ»^(٢)، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلَيْسَتْ عِندَ اللَّهِ وَلَيْسَتْ»^(٣).

وعن عائشة، قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»^(٤)، وعن عبد الله بن عمرو، قال: هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ١/ ١٧٣ - الموافقات ٥/ ٣٩١ - تفسير القرطبي ٦/ ٢١٩ - المحرر الوجيز لابن عطية، ٤/ ٣٧.

(٢) صحيح مسلم ك الإيمان باب بيان الوسوسة في الإيمان.. (١/ ١١٩) برقم (١٣٤).

(٣) صحيح مسلم ك الإيمان باب بيان الوسوسة في الإيمان.. (١/ ١٢٠) برقم (١٣٥).

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري ٦/ ٣٣ برقم (٤٥٤٧) - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٣) برقم (٢٦٦٥).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يُعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»^(١).

وفي كل ما يتعلق بهذا الغيب المخبوء وراء الكون ووراء الطبيعة فليس على الرسول إلا البلاغ: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]، ولا يكلف بأكثر من البلاغ؛ لأن الله لم يعطه أكثر من هذا: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَيْنَا بِمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فأما الذين يصرون على الخوض فيما لا قِبَلَ للعقل به ولو على سبيل التساؤل فاعتزال مجالسهم هو السبيل القويم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقد قضى الله بأن يقف علم الإنسان بالأمور الغيبية عند ما أوقفه الوحي عنده: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، والخوض فيما لا علم للناس به صورة من صور التنطع، وهو مهلك ولا ريب، وقد قال ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا^(٢)، والخوض في الغيبات بالعقل اتباع لغير سبيل المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقد حذر رسول الله ﷺ، فقال:

(١) صحيح مسلم كتاب العلم باب النهي عن اتباع المتشابه (٢٠٥٣ / ٤) برقم (٢٦٦٦).

(٢) صحيح مسلم ك العلم باب هلك المتنتعون (٢٠٥٥ / ٤) برقم (٢٦٧٠) عن ابن مسعود رضي الله

«لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَا تَبْعَتْهُمْهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»؟! (١).

لذلك لم يكن من الرشد الانبهارُ بمنطق أرسطو وبالفلسفة الإغريقية في وقت مبكر من حياة الأمة المهدية، ولم يكن من الخير لهذا الدين ولا لهذه الأمة سلوك سبيل علم الكلام، والولوج على متنه لعالم الغيب بغير هدى من الوحي المعصوم، ولم يكن المسلمون بحاجة إلى شيء من ذلك قط بعد أن تركهم رسول الله ﷺ على المحجة البيضاء، كيف ننساق وراء طرائق قوم لم ترفعهم فلسفتهم من وحل الوثنية رتبة واحدة؟! كيف وقد أبى الرسول ﷺ على عمر حين رآه يقرأ صحفًا من موروث أهل الكتاب، وشدد عليه في النكير، فعن جابر أن عمر بن الخطاب، أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «أمتهم كون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني» (٢).

والغريب أنَّ المتكلمين الذين تأثروا بالمنطق اليوناني وأرادوا الغوص بعقولهم في الغيب متجاوزين النصوص القرآنية الصريحة الواضحة، نسوا أنَّ هذه الطريقة ذاتها هي التي دفعت أصحاب هذا المنطق وغيرهم ممن تأثروا من قبل به إلى إنكار النبوات والمعاد وكثير مما لا ينكره هؤلاء المتكلمون؛ لذلك انتقل هذا التناقض الفج من المناطق والفلاسفة الأوائل إلى المتكلمين، فأنكروا صفات الله

(١) صحيح مسلم، ك العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، (٤/ ٢٠٥٤) برقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) مسند أحمد، ط: الرسالة (٢٣/ ٣٤٩) برقم (١٥١٥٦).

تعالى مثلما أنكر أسلافهم النبوات والمعاد بعد إثبات «الصانع!»، يقول ابن تيمية: «ما سلكه هؤلاء نفاة الصفات من معارضة النصوص الإلهية بآرائهم هو بعينه الذي احتج به الملاحدة الدهرية عليهم في إنكار ما أخبر الله به عباده من أمور اليوم الآخر، حتى جعلوا ما أخبرت به الرسل عن الله وعن اليوم الآخر لا يستفاد منه علم»^(١)، ويقول أيضا في بيان تهافتهم إذ يعارضون القرآن بالعقل ويظنون أن دليل العقل يقيني وأن دليل السمع كله ظني: «المعارضون للكتاب والسنة بآرائهم لا يمكنهم أن يقولوا: إن كل واحد من الدليلين المتعارضين يقيني، وقد تناقضا على وجه لا يمكن الجمع بينهما... ولكن نهاية ما يقولونه: إن الأدلة الشرعية لا تفيد اليقين، وإن ما ناقضها... من أدلتهم المبتدعة... براهين قطعية؛ ولهذا كان لازم قولهم الإلحاد والنفاق والإعراض عما جاء به الرسول، والإقبال على ما يناقض ذلك، كالذين ذكرهم الله تعالى في كتابه من مجادلي الرسل: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِآلِطِلٍ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾»^(٢).

وقد كثرت الروايات الواردة عن السلف في ذم المنطق والكلام، من ذلك ما أخرجه النووي في ذم الكلام من طريق الكرابيسي قال: شهدت الشافعي - ودخل عليه بشر المريسي - فقال لبشر: أخبرني عما تدعو إليه: أكتأب ناطق، وفرض مفترض، وسنة قائمة، وجددت عن السلف البحث فيه والسؤال؟ فقال بشر: لا، إلا أنه لا يسعنا خلافه، فقال الشافعي: أقررت بنفسك على الخطأ، فأين أنت من الكلام

(١) درء تعارض العقل والنقل - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ت د. محمد رشاد سالم - ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية - ط: الثانية - ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، ٣/٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية - ت د. محمد رشاد سالم - مرجع سابق - ٣/٥.

في الفقه والأخبار، يواليك الناس وتترك هذا؟ قال: لنا نُهْمَةٌ فيه، فلما خرج بشر، قال الشافعي: لا يفلح^(١).

وعلق السيوطي قائلًا: «دَلَّ هذا النص على أن من العلة في تحريم النظر في علم الكلام، كونه لم يرد الأمر به في كتاب ولا سنة، ولا وُجد عن السلف البحث فيه، وهذا بعينه موجود في المنطق فإنه لم يرد الأمر به في كتاب ولا سنة، ولا يوجد عن السلف البحث فيه، بخلاف العربية فإنه ورد الأمر بها في الحديث، ووجد عن السلف البحث فيها، وهذه العلة هي التي اعتمدها ابن الصلاح، حيث أفتى بتحريم المنطق حيث قال: وليس الاشتغال بتعلمه وتعليمه مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وكأن ابن الصلاح استنبط هذه العلة من تعليل الشافعي لعلم الكلام»^(٢)، والمقصود بقول العلماء إنه لم يرد الأمر به في كتاب ولا سنة أنه ليس مما يتسق مع الكتاب والسنة؛ لأنه على طريق غير طريقهما وهدي غير هديهما.

وقد أكثر أئمة السلف الحديث عن علم الكلام والمنطق في سياق الذم والتحذير، وما أكثر الكتب التي وضعوها في ذم الكلام؛ وما ذاك إلا لإدراكهم طبيعته التي تتنافى مع المنهج القرآني، وكان من أجَلِّ الكتب التي وضعت في هذا الشأن كتاب «ذم الكلام وأهله» لشيخ الإسلام الهروي، وقد لخصه الإمام السيوطي تلخيصًا مركزًا في كتابه الرائع «صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام»، ولعل من المفيد أن أسوق هنا قطوفًا من هذا التلخيص المركز؛ ليكون تلخيصًا للتلخيص.

(١) سير أعلام النبلاء، ط: الرسالة (١٠ / ٢٧).

(٢) صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام - جلال الدين السيوطي - تحقيق: د. علي سامي النشار والسيدة سعاد علي عبد الرازق - الناشر: مجمع البحوث الإسلامية - ص ٤٦.

ينقل السيوطي عن الهروي: «أما بعد فإن هذه الأمة لم يؤتوا في دينهم من شيء ما أوتوا فيه من قبل التكلف والجدال، وهما داء الأمم السالفة، ولم يأتيًا بخير قط... عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) ثم تلا: ﴿مَاضِرُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾... وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم، وهم يتراجعون في القدر... وعن أبي هريرة قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر؛ فغضب حتى أحمر وجهه، ثم قال: (أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم أن لا تنازعوا)...

وعن معاوية قال: لعن رسول الله ﷺ الذين يشقون الكلام تشقيق الشعر... وعن معمر قال: كان ابن طاووس جالسًا فجاء رجل من المعتزلة فجعل يتكلم، فأدخل ابن طاووس أصبعيه في أذنيه وقال لابنه: أي بني أدخل أصبعيك في أذنيك واسدد لا تسمع من كلامه شيئاً... وعن محمد بن الحنفية قال: «إِنْ مَنْ قَبْلَكُمْ نَقَرُوا وَبَحَثُوا فَتَاهُوا؛ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنَادِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، فَيَجِيبُ مِنْ خَلْفِهِ وَيَنَادِي مِنْ خَلْفِهِ فَيَجِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ»... وعن هشام بن عبد الملك أنه قال لبنيه: إياكم وأصحاب الكلام فإن أمرهم لا يؤول إلى الرشاد... وعن مالك: قال: «إياكم والبدع»، قيل يا أبا عبد الله، وما البدع؟ قال: «أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، فلا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان»...

وقال الأوزاعي: ولو كان الكلام خيرًا، ما خُصِّصْتُم به دون أسلافكم؛ وإن الله لم يدخر عنهم خيرًا خُبِّي لكم دونهم لفضل عندكم، وهم أصحاب محمد اختارهم الله وبعثه فيهم... وكان سفيان الثوري يبغض أهل الأهواء، وينهي عن مجالستهم أشد النهي... ورأى أيوب رجلا من أصحاب الأهواء، فقال: إني لأعرف الذلة

في وجهه، ثم قرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَجَلَ﴾ الآية... وعن نوح الجامع قال: قلت لأبي حنيفة: ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: مقالات الفلسفة؟ عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة.

وعن أبي يوسف قال: «من طلب الدين بالكلام تزندق»، وعنه قال: «العلم بالخصومة والكلام جهل، والجهل بالخصومة والكلام علم»... وعن ابن المبارك قال: الكذب للروافض، والخصومة للمعتزلة والدين لأهل الحديث... وعن الفضيل بن عياض قال: «لا تجلس مع صاحب هوى، فإني أخاف عليك مقت الله»... وقد كان ابن أبي حاتم وأبو زرعة ينهايان عن مجالسة أهل الكلام والنظر في كتب المتكلمين، ويقولان: لا يفلح صاحب الكلام أبداً... وفي كتابه (خلق أفعال العباد) قال البخاري: المعروف عن أحمد وأهل العلم أنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنبوا أهل الكلام والخوض والتنازع^(١).

وإذْنُ فالوقوف حيث أوقفنا الوحي فيما يتعلق بالغيب منهج إسلامي يتفق ويتسق مع العقل ومع الشرع؛ حتى لا يألَف الخوض فيما لا مجال له فيه ولا شأن له به، وهذه فطرته التي فطره الله عليها، وكذلك الشرع يأبى إلا أن يوقف العقل - بعد أن اهتدى إلى الوحي - عند حدود هذا الوحي، ويلزمه أن يستسلم للخبر والأمر، يستسلم للخبر تصديقاً وللأمر انقياداً، ليفرغ إلى وظيفتي: العبادة والخلافة.

لكن الذي أحب أن أذكر به - وهو خلاصة ما سبق - قبل أن ندلف إلى النتيجة والأثر، هو أمران متضامان متضامنان، الأمر الأول: ضرورة ترتيب الحقائق الثابتة

(١) ر: صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام - جلال الدين السيوطي - مرجع سابق -

بالبرهان؛ لأنها في الواقع مبنية بعضها على بعض، وليست مبشرة بلا ترتيب، الثاني: الردّ إلى الوحي في كلّ ما ليس من اختصاص العقل الإنسانيّ ووظائفه وقدراته؛ اكتفاءً بأصولها وجذورها التي تمت البرهنة عليها عقلاً بما لا يدع مجالاً للشكّ، وهذا مسلك علميّ منهجيّ؛ فكثير مما أثبتته العلم ثبوتاً قطعياً تفرعت عليه حقائق ليست مفهومة.

النتيجة والأثر

قلنا إنّ الحقائق ليست مبشرة بلا ترتيب، ولا مبثوثة في فضاء العقليات بلا نظام، وإنّما هي مرتبة منظمة أخذ بعضها برقاب بعض، كهذا الكون المتماسك المتناغم، وإذا كان العلم والمنهج العلميّ قد أثبت الحقائق الكبرى والعقائد الأمهات؛ فإنّ البناء عليها ضروريّ للخلاص من الريب والفكاك ومن الشكوك، ولأمر آخر غاية في الأهمية، وهو معرفة ما لا سبيل إلى معرفته بالاستدلال أو البرهنة العقلية؛ لكونه من الأمور التي تعلقت بالغيب كلياً أو جزئياً، ولا مدخل للعقل فيه ولا للمنهج التجريبيّ.

فإذا ثبت بالدليل الساطع والبرهان القاطع وجود الله وربوبيته وألوهيته ووحدانيته وكماله، وثبت بإزاء ذلك صدق الرسول ﷺ فيما يبلغ عن ربه، ونسبة القرآن الكريم إلى ربّ العزة تبارك وتعالى؛ وجب ردّ الأمور المتعلقة بالغيب إلى الوحي المعصوم، سواء كانت هذه الأمور بتمامها من الغيب كالصراط والميزان والجنة والنار والبرزخ وغير ذلك، أو كانت ممتدة بين الحاضر المشهود والغيب المكنون، مثل تفاصيل القضاء والقدر، والخير والشرّ، وما شابه ذلك من المسائل التي يكفي فيها الخبر.

والردّ إلى الوحي يستلزم منا الثقة بالوحي والتسليم له، فهذا هو مقتضى الإسلام ومقتضى الإيمان ومقتضى الإحسان والاتباع؛ إذ كيف يكون العبد مستسلماً لله مؤمناً به محسناً في إسلامه وإيمانه مُتَّبِعاً للوحي وما يتضمنه من خبر وأمر، وهو واقف مع كل خبر وأمر على حافة المناقشة والأخذ والردّ، إنّ هذه الطريقة لا يقبلها الأستاذ من تلميذه ولا الشيخ من مريده ولا الأب من ابنه ولا الأم من ابنتها ولا الكبير الخبير من الصغير الغرير؛ فكيف يقبلها ربّ العالمين من عباده؟

ولذلك يروق لي قول الإمام الطحاوي في «العقيدة الطحاوية»: «وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِسْلَامِ، فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهَمُّهُ حَاجِبُهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالصِ التَّوْحِيدِ وَصَافِي الْمَعْرِفَةِ وَصَحِيحِ الْإِيمَانِ فَيَتَذَبَذَّبُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ مَوْسُوسًا تَائِهًا شَاكًا لَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا وَلَا جَاهِدًا مُكَذِّبًا»، وهو كلام مسوق في كيفية التعامل مع المسائل الغيبية، سواء كانت غيبية كلاً أو جزءاً، وقال في موضع آخر عن القدر: «وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطْلُعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ وَسَلْمُ الْحَرَمَانِ وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ؛ فَالْحَذَرُ كُلُّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسةً، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنْامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٢٣]، فَمَنْ سَأَلَ لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ»، وهذا كلام مستقيم على الجادة، أمّا الخوض فليس عقلاً، والتسليم لله في هذه المسائل أمر عقلائي؛ لأنّ أخبار المغيبات مبنية على مقدمات تمت البرهنة عليها سلفاً، وهي قضايا الإيمان الرئيسية.

والتسليم لا يعني إلغاء العقل، فالعقل أدّى دوره كاملاً بالبرهنة على القضايا الكبرى التي تُبنى عليها كلّ الفروع العقدية وجميع مسائل الإيمان الفرعية، سواء منها ما هو شاهد وما هو غائب، كما أنّ العقل له أدوار أخرى متعلقة بوظيفتي العبادة والاستخلاف في الأرض، فليس من العقل ولا من الشرع تبديد الطاقة العقلية فيما لا يجدي ولا يفيد، وما الذي يستفيده الناس من البحث في قضايا كلامية جدلية مثل قضية الخير والشرّ، إنّ إثارة مثل هذه القضايا وسوسة شيطانية، الغرض منها بثّ الشكوك وزرع الارتياب في قلوب الناس ولا سيما الشباب، ومن ذهب وراء هذه القضايا لن يصل إلى شيء.

يسأل بعضهم: لماذا خلق الله الشرّ في العالم؟ كيف يكون إلهاً رحيماً وعادلاً ومحباً للخير وهو يرضى بوجود الشرّ؟ ويذهب بعض من يسأل هذا السؤال إلى أبعد من ذلك حيث يشكك في وجود الله من الأساس بسبب وجود الشرّ في العالم، وهذا في الحقيقة منهج مقلوب معكوس، فوجود الله تعالى حقيقة ثابتة بأدلتها، وليست متوقفة في ثبوتها على الوصول لحلّ في لغز الخير والشرّ أو معضلة القدر، وهنا يأتي دور ما تقدمنا به في بداية هذا الفصل، وهو أهمية ترتيب القضايا، أيها جذر فيتقدم وينبى عليه وأيها فرع فيتأخر، ولا يصح أن يهدم الجذر المتقدم بسبب مشكلة عرضت لنا تتعلق بالفرع الذي بنى عليه.

ولتقريب الصورة من الأذهان أضرب هذا المثال: إذا ثبتت ملكية إنسان ما لبيته الذي يسكنه بالأوراق والعقود الموثقة في الشهر العقاري والمصدّقة من الجهات الرسمية، إلى جانب ثبوتها بالشهود العدول، واستقرارها بالسكنى ووضع اليد والتقادم وعدم قيام أيّ مدعٍ أو وثوب أيّ منتحل، إذا ثبتت الملكية على هذا النحو، ثمّ جاء من يشكك في هذه الملكية بزعم أنّ صاحب البيت مسلمٌ متدين،

والمسلم المتدين لا يمكن أن تطاوعه نفسه للسكنى في حيٍّ ينتشر فيه البغاء وتشيع فيه الرذيلة، فالمدعي قلب الاستدلال وعكس البرهنة وردّ الذيل رأساً؟ وينبغي أن نقول له: استدللّ أولاً على ثبوت الملكية بأدلتها الصحيحة، فإذا ثبتت بلا شك ولا ريب؛ فقم بتوجيه سؤالك لصاحب البيت: لماذا اخترت هذا المكان وأنت رجل محافظ؟ فقد يجيبك: اخترته لأدعو أهله إلى الصلاح فأربح الأجر فيهم، وقد يضمن عليك بالسّر ويحرجك قائلاً: وأنت ما شأنك؟ الزم حدودك ولا تتدخل فيما لا يعنك، هذا مثال والله المثل الأعلى.

لقد قرأت كثيراً عن مسائل الخير والشر، وعن سفسطة المشائين سابقاً، وهي عملية لعب بالألفاظ والجمل، كمن يَقْرَعُ قرعاً غير منتظم على صفائح مشقوقة أو قِرَبٍ مثقوبة، فإن تأملت وجدت التحكمات الفارغة تهيمن على الموقف، وإن تعجب فَعَجَبُ شأن داعية الإلحاد «ريتشارد دوكينز»؛ فقد لجأ مؤخراً إلى هذه الشبهة، ففيما يبدو أنه فشل في ترسيخ فكرته بالعلم التجريبي، بعد ظهور نظرية الانفجار العظيم وإهالتها التراب على رؤوس الملحدين؛ فراح يفتش في جيوب المفلسين علّه يجد فيها فلساً كاسداً!

وكذلك قرأت ردوداً كثيرة لعلماء ومفكرين إسلاميين، وفي نظري أنها حققت بعض المراد، لكنها ليست كافية ولا شافية؛ لأنّ هذه المسائل احتفظ الحق تبارك وتعالى بعلمها، فالله تعالى لا يحيط بحكمته العلماء ولا الحكماء، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فلنأخذ من هذه المسائل ما أخبر الله به ولننتفع به، ولا ندع ما ينفع إلى ما لا نفع فيه، وليس العلم بها سبيلاً إلى البرهنة على ربوبية الله، وليس الجهل بها سبيلاً إلى تبرير الإلحاد وتسويغ الكفر، فلنمض في الوجهة الصحيحة ولا نرتدّ إلى الوجهة العكسيّة، فإنّ كُنّا آمناً بالله

وبرسوله وبكتابه عن قناعة وبرهان فلنفوض إليه ما لا نعلمه من هذه الأمور التي تتعلق بالمشيئة والحكمة والإرادة الإلهية، أمّا إن كان إيماننا ضعيفاً مضطرباً يُعَوِّزُهُ البرهان فعلياً أن نُثَبِّتَهُ بالبراهين الصحيحة لا بالجري وراء هذه الشبهات المتفشية في الأثير.

فأمّا ما جاءنا في كتاب الله عن الخير والشرّ فمثّل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿﴾ [الزلزلة: ٧-٨]؛ فالواجب علينا أن نتحمل المسؤولية فننبذ الشر ونتجنبه وننهى عنه، ونفعل الخير وندعو غيرنا لفعله، أمّا أن نترك مسئوليتنا لنجري وراء سؤال الحكمة: لماذا خلق الله الشرّ؟ ونتخذ ذريعة للشكّ والتشكيك؛ فهذا هو الضياع بعينه، فما خلقنا الله لمثل هذا، والعلم بذلك لا ينفع والجهل به لا يضر، علينا أن نؤمن أنّ الله في ذلك حكمة، من علمها فعلمه بها نعمة تستوجب الشكر، ومن جهلها فجهلها بها ابتلاء يستوجب الصبر، ولا يؤخر شيء من ذلك ولا يقدم في إثبات الربوبية، فالربوبية قائمة ومفروغ منها، وليست عرضة لزعة الموسوسين، الذين تعبث بعقلوهم وقلوبهم الهواجس والظنون.

وقد قال العلماء: إنّ الوحي قد يأتي بما تحار فيه العقول، لكن لا يأتي بما تُحِيلُهُ العقول، فلا يمكن أن يكون في كتاب الله شيءٌ تُحِيلُهُ العقول، ولا يمكن أن يتعارض صحيح المنقول مع صريح المعقول، لكنّ الوحي عمومًا فيه بعض المسائل التي تحار فيها العقول وإن كانت لا تحيلها، ووجودها ليس هو الأصل، فالأصل المستمر المستقر الدائم المتصل المستفيض هو أنّ القرآن بيان وتبيان، ومجيء بعض المسائل القليلة التي تحار فيها العقول له سببان، الأول: الابتلاء؛

فكما يُبْتَلَى إِسْلَامُ الْعَبْدِ وَانْقِيَاضُهُ بِالشَّهَوَاتِ يُبْتَلَى إِيْمَانُهُ وَقَبُولُهُ بِالشَّبَهَاتِ، السَّبَبُ الثَّانِي: أَنَّ الْعَقْلَ مَحْدُودٌ وَحَقَائِقُ الْوُجُودِ لَا حُدُودَ لَهَا؛ فَالْأَمْرُ الطَّبِيعِيُّ أَنْ تَبْقَى مَسَائِلُ يَقِفُ الْعَقْلُ عِنْدَهَا، فَإِذَا أُلْهِمَ الْإِنْسَانُ رَشْدَهُ بَرَهَنَ عَلَى أَمَهَاتِ الْقَضَايَا، وَرَدَّ إِلَيْهَا مَا يَبْنِي عَلَيْهَا مِمَّا لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى عِلْمِهِ، هَذَا الرِّشْدُ فِي بِنَاءِ الْحَقَائِقِ وَتَرْتِيبِهَا قَدْ ضَمَّنَهُ الْوَحْيُ الْمَعْظَمُ، وَهَذَا أَحَدُ صُورِ الْإِعْجَازِ، وَأَحَدُ مَظَاهِرِ الْمُنَّةِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَى الْعِبَادَةِ؛ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى نِعْمَةِ الْوَحْيِ.

وَأَخِيرًا فَإِنِّي إِذْ أَتَقَدَّمُ لِلْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ بِهَذَا الْعَمَلِ؛ أَدْعُو اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَزِيدَنَا بِمَرِّ الْأَيَّامِ وَكَرِّ الْأَعْوَامِ إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِنَا، ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨١).



ثبت المراجع

- الإسلام بين الشرق والغرب - علي عزت بيغوفيتش - ترجمة: محمد يوسف عدس - دار النشر للجامعات مصر - مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام - ط: ثانية - ١٩٩٧ م.
- الإسلام دين عام خالد - محمد فريد وجدي - دائرة معارف القرن العشرين - ط: أولى - ١٩٣٢ م.
- الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - ترجمة: د. ظفر الدين خان - مكتبة الرسالة - بدوت ط ت.
- الاعتصام للشاطبي - إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي - دار ابن عفان، السعودية - الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- «الإنسان - الله» - لوك فيري - ترجمة: د. جميل قاسم - مجلة الاستغراب ربيع ٢٠١٦ م.
- الأورجانون الجديد «إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة» - فرانسيس بيكون - ت عادل مصطفى - رؤية للنشر - القاهرة - ط: ٢٠١٣ م.
- أيقونات التطور.. علم أم خرافة؟ - جونثان ويلز - ترجمة د. موسى إدريس وزملائه - دار الكاتب - الإسماعيلية - مصر - ط: أولى - ٢٠١٤ م.
- البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية - رجاء وحيد دويدري - دار الفكر المعاصر - بيروت - ط: أولى - ٢٠٠٠ م.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد - أحمد بن محمد بن المهدي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط: الثانية - ٢٠٠٢ م.
- تاريخ موجز للزمان من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء - ستيفن هوكنج - ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي - سلسلة جدران المعرفة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط: ٢٠٠٦ م.
- التصميم العظيم «إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى» - ستيفن هوكنج وزميله - ت أيمن أحمد عياد - دار التنوير - بيروت - ط: أولى - ٢٠١٣ م.

- التصميم العظيم «إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى» - ستيفن هوكينج وليونارد مولدينوو -
ترجمة أيمن أحمد عياد - دار التنوير - بيروت - ط: أولى - ٢٠١٣ م.
- تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين أبي سعيد عبد الله البيضاوي، ط: دار
الفكر - بيروت - لبنان - ١٩٩٦ م.
- تفسير الزمخشري = الكشف عن حقائق غوامض التنزيل - محمود بن عمرو الزمخشري جار الله
- دار الكتاب العربي - بيروت - ط: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
- تفسير السمعاني - أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني - دار الوطن - الرياض - السعودية -
ط: أولى - ١٩٩٧ م.
- تفسير الشعراوي - الخواطر - محمد متولي الشعراوي - مطابع أخبار اليوم - بدون.
- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن - أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي - دار الكتب المصرية
- القاهرة - ط: الثانية - ١٩٦٤ م.
- التفكير العلمي - د. فؤاد زكريا - العدد الثالث من سلسلة عالم المعرفة - المجلس الأعلى للفنون
بالكويت - مارس ١٩٧٨ م.
- الجائزة الكونية الكبرى «لماذا الكون مناسب للحياة» - بول ديفيز - ترجمة د. سعد الدين خرفان -
وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠١١ م.
- حافة العلم (عبور الحد من الفيزيكا إلى الميتافيزيكا) - ريتشارد موريس - ترجمة د. مصطفى
إبراهيم فهمي - منشورات المجتمع الثقافي - أبو ظبي - ط: أولى - ١٩٩٤ م.
- خرافة التطور - روبرت جيمس غالغي - ترجمة فداء ياسر الجندي - دار الوعي للنشر - السعودية
- ط: أولى - ١٤٣٦ هـ.
- خواء الذات والأدمغة المستعمرة - د. مراد هوفمان - ترجمة عادل المعلم - مكتبة الشروق الدولية
- مصر - ط: ثانية - ٢٠١١ م.
- درء تعارض العقل والنقل - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية -
ت د. محمد رشاد سالم - ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية - ط: الثانية - ١٤١١ هـ
- ١٩٩١ م.

الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون - ستيفن ونبغ - ت محمد الأتاسي - وزارة الثقافة دمشق
- ط: ١.

ديفيد هيوم وقانون العلّة «لعبة التناقض المريب» - مازن المطوري - مجلة الاستغراب ١٨ - شتاء
٢٠٢٠ م.

الدين والعقل الحديث - والتر ستيس - ترجمة إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولي - مصر -
ط: أولى - ١٩٩٨ م.

الدين والعلم - برتراند رسل - ترجمة رمسيس عوض - دار الهلال - بدون.
رحلة عقل «وهكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان» - د. عمرو شريف - مكتبة الشروق
الدولية - القاهرة - ط: الرابعة - ٢٠١١ م.

رحلتي من الشك إلى الإيمان - د. مصطفى محمود - دار المعارف - مصر - بدون.
زاد المسير في علم التفسير - عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي - المكتب الإسلامي -
بيروت - ط: الثالثة - ١٤٠٤ هـ.

سنن ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد
عبد الباقي.

سير أعلام النبلاء - شمس الدين الذهبي - مؤسسة الرسالة - ط: الثالثة - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
شموع النهار - عبد الله بن صالح العجيري - مركز تكوين - مكتبة مؤمن قريش - الخبر - السعودية
- ط: أولى - ٢٠١٦ م.

صحيح مسلم - المسند الصحيح المختصر - مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري
- دار إحياء التراث العربي - بيروت.

صندوق دارون الأسود - د. مايكل بيهي - ترجمة مؤمن حسن وآخرين - دار الكتاب للنشر
والتوزيع - الإسماعيلية مصر - ط: أولى - ٢٠١٤ م.

صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام - جلال الدين السيوطي - تحقيق: د. علي سامي
الشار والسيدة سعاد علي عبد الرازق - الناشر: مجمع البحوث الإسلامية.

ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث - د. سلطان عبد الرحمن العميري - تكوين للدراسات
- الخبر السعودية - ط: ٢ - ٢٠١٨ م.

العالم والنص والناقد - إدوارد سعيد - ترجمة: عبد الكريم محفوظ - موقع اتحاد الكتّاب العرب
- بدون.

العقل والمعايير - أندريه لالاند - ترجمة د. نظمي لوقا - الهيئة العامة المصرية للكتاب -
ط: ١٩٧٩ م.

العلم ودليل التصميم في الكون - مايكل بيهي - وليم ديمبكي - ستيفن ماير - ترجمة رضا زيدان
- مكتبة مؤمن قريش - السعودية - الخبر - ط: أولى - ٢٠١٦ م.

كتاب العين - الخليل بن أحمد الفراهيدي - ت د. مهدي المخزومي - دار ومكتبة الهلال - بدون.

فتح الباري شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني - دار المعرفة - بيروت، بدون.

فضل الإسلام على الحضارة الغربية - مونتجومري وات - ترجمة: حسين أحمد أمين - دار الشروق
بيروت - ط: ١٩٨٣ م.

فكر حركة الاستنارة وتناقضه - د. عبد الوهاب المسيري - نهضة مصر للنشر - القاهرة - ط: أولى
- ١٩٩٨ م.

في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة - نقد التمرکز الأوروبي - الطيب بو عزة - مركز نماء لبحوث
والدراسات - بيروت - لبنان.

القضية.. الخالق - لي ستروبل - ترجمة سليم اسكندر وحنان يوسف - دار الكلمة - ط: ٢ - ٢٠١٣ م.
القوى الأربع الأساسية في الكون - بول ديفيز - ترجمة هاشم أحمد محمد - المجلس الأعلى
للثقافة - مصر - ط: أولى - ٢٠٠٢ م.

الله يتجلى في عصر العلم - نخبة من علماء أمريكا - تحرير: جون كلوفر مونسيم - ترجمة:
د. الدمرداش سرحان - دار القلم - بيروت.

ليطمئن عقلي - أحمد خيرى العمري - دار عصير الكتب - ط: الأولى - ٢٠١٩ م.

مبحث في الفاهمة البشرية - ديفيد هيوم - ترجمة موسى وهبة - دار الفارابي - بيروت - ط: أولى
- ٢٠٠٨ م.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام ابن عطية - ت: عبد السلام عبد الشافي محمد - دار الكتب العلمية - بيروت.
- المحكم والمحيط الأعظم - لابن سيده - ت عبد الحميد هنداي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط: ١ - ٢٠٠٠ م.
- مختار الصحاح - محمد بن أبي بكر الرازي، ط: دار نهضة مصر للطباعة والنشر - الفجالة - القاهرة. مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق - د. توفيق الطويل - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - مصر - ط: أولى - ١٩٥٣ م.
- مسند أحمد - أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني مؤسسة قرطبة، القاهرة.
- معالم أصول الدين - أبو عبد الله «فخر الدين الرازي» - ت: طه عبد الرؤوف سعد - دار الكتاب العربي - لبنان - بدون.
- مناهج البحث العلمي - د. عبد الرحمن بدوي - وكالة المطبوعات - الكويت - ط: الثالثة - ١٩٧٧ م.
- مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث - د. عبد الفتاح محمد العيسوي وأخوه - دار الراتب - مصر - ط: ١٩٩٧ م.
- مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامي والفكر الحديث.
- مناهج البحث في العلوم السياسية - دكتور محمد محمود ربيع - مكتبة الفلاح - الكويت - ط: الثانية - ١٩٨٧ م.
- منطق البحث العلمي - كارل بوبر - ترجمة د. محمد البغدادي - مركز دراسات الوحدة العربية - ط: ١٠ لسنة ١٩٩٤.
- المهندس الأعظم وغاية العالم - والتر ستيس - مجلة الاستغراب، ربيع ٢٠١٦ م.
- الموافقات في أصول الشريعة - لأبي إسحاق الشاطبي، ط: دار المعرفة بيروت بلبنان - ط: الأولى - ص ١٩٩٤ م.
- موسوعة الرد على الملحدين العرب - د. هيثم طلعت - دار الكاتب للنشر والتوزيع - الإسماعيلية - مصر - ط: أولى - ٢٠١٤ م.

الموسوعة الفلسفية المختصرة - جوناثان ري وج - ت: فؤاد كامل وزميليه - المركز القومي للترجمة - القاهرة - ط: ٢٠١٣ م.

نظرية المعرفة الإسلامية - د. جعفر عباس حاجي - مكتبة الألفين - الكويت - ط: أولى - ١٩٨٦ م.

نقد الحداثة - ألان تورين - ترجمة أنور مغيث - المجلس الأعلى للثقافة - مصر - ١٩٩٧ م.

نقد العقل المحض - إيمانويل كانط - ترجمة موسى وهبة - مركز الإنماء القومي - بيروت - لبنان

- بدون.

هناك إله «كيف غير أشهر ملحد رأيته» - أنتوني فلو - ترجمة د. صلاح الفضلي - الكويت ط: أولى

- ٢٠١٥ م.

وهم الشيطان «الإلحاد ومزاعمه العلمية» - ديفيد بيرلنسكي - ترجمة عبد الله الشهري - مركز

دلائل - الرياض - السعودية - ط: أولى - ١٤٣٧ هـ.

يوميات ألماني مسلم - مراد هوفمان - ت د. عباس رشدي - مركز الأهرام للترجمة والنشر -

القاهرة - ط: أولى - ١٩٩٣ م.





فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	٥
الفصل الأول: الإلحاد والمأزق الأبيستمولوجي.....	٩
بيئة ثقافية ملبدة بغيوم الهوى.....	١٦
ظنون وتخرصات تعوق الوصول إلى الحقيقة.....	٢٢
التنكر للغائية جهل وغوغائية.....	٢٥
الإشكالات الطارئة على المنهج التجريبي.....	٢٨
القرآن والمنهج التجريبي.....	٢٩
تفاصيل اجتهادية.....	٣٣
الأثر التاريخي.....	٣٤
الانحراف ومظاهره.....	٣٥
الفصل الثاني: الاستدلال على وجود الله تعالى.....	٤٧
ظاهرة توسع القرآن في البرهنة على الربوبية.....	٥٠
طريقة القرآن في البرهنة على الربوبية.....	٥٣
تفصيل وتدليل.....	٦٤
الدليلان المتعاضدان.....	٦٦
العلم ودليل الخلق والتصميم.....	٧٠
الفصل الثالث: تهافت الإلحاد.....	٨٧

الموضوع	الصفحة
بطلان فكرة التطور الذاتي للكون والحياة	٩٠
التعقيد يستدعي التصميم ويحيل العشوائية	٩٥
الثابت الكوني والمعايير المنضبطة	٩٨
المعلومات المحتشدة والتوجيه المقصود	١٠٣
أقوال منتشرة ومشتهرة	١٠٥
الفصل الرابع: الإيمان بالغيب وشبهات الملحدين	١١٧
عقلانية الإيمان بالغيب	١١٩
لا سبيل في الغيبات سوى الرد إلى الوحي	١٢٢
النتيجة والأثر	١٣٤
ثبت المراجع	١٤١

